حوار مع السفسطائي

سلسلة إصدارات أكاديمية الحكمة العقلية | 36 |

الأستاذ الدكتور أيمن المصري

سلسلة إصدارات أكاديمية الحكمة العقلية (٣٦)

حوار مع السفسطائي

الدكتور أيمن المصري

هوية الكتاب

الكتاب:	حوار مع السفسطائي
المؤلف:	الدكتور أيمن المصري
الناشر:	
القطع:	رقعي
العدد:	١٠٠٠
الطبعة:	الأولى سنة ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م
رقم الإيداع الدولي:	٩٧٨-٩٦٤-٤٦٦-١٢٥-٩

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية الحكمة العقلية

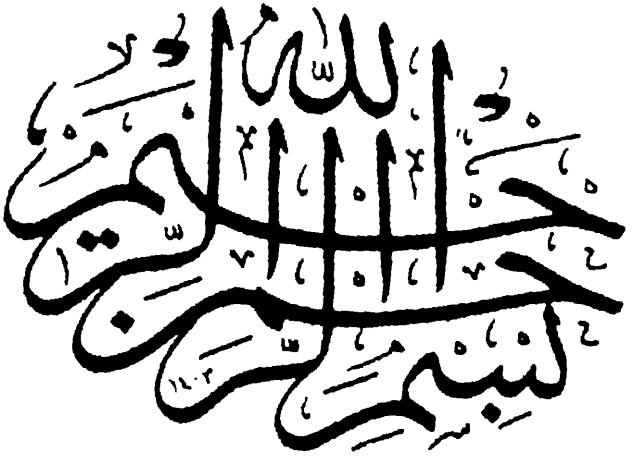
بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بعد أن فرغنا من سلسلة الحوار العقلي مع الإنسان العاقل، ووصلنا إلى أنّ للعقل الواعي قوانينه البيولوجية الطبيعية، التي هي مظهر الصحة العقلية، والمتمثلة في المنهج العقلي البرهاني، وبعد أن شرحنا أحوال ومشكلات المتاهات الفكرية المختلفة التي تحيط بنا في هذا العالم، أريد أن أشرع في سلسلة حوارات فكرية جديدة مع أصحاب هذه المتاهات الفكرية، من الاتجاه المادي، والديني، والروحي، والذين مع شدة الاختلاف فيما بينهم بحسب الظاهر، فإنه يمكن تصنيفهم جميعا تحت عنوان السفسطائي.

وربما يكون التصنيف تحت هذا العنوان عجيبا، ومستهجنا عند الكثيرمن الناس، لكون السفسطائيين هم جماعة قديمة ظهرت في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، تتنكر للمعرفة الإنسانية بنحو مطلق، وتشكك في كل العقائد والعلوم والقوانين والقيم الإنسانية، وتدعوا إلى إبطال التعليم والتعلم، مستعملة في سبيل ذلك كل انواع المغالطات المنطقية.... فكيف يمكننا بعد ذلك أن نعمم وصف السفسطة لسائر الاتجاهات الفكرية الإنسانية، لمجرد أنها مناوئة للمنهج العقلي البرهاني؟!، أليس هذا نحو من التعصب والدوجماطيقية؟!

أليس الاتجاه المادي يؤمن بالمنهج العلمي التجريبي، والذي استطاع من خلاله تحقيق هذه النهضة الصناعية التكنولوجية التي ننعم جميعا بانجازاتها الكبيرة؟

أليس الاتجاه الديني يؤمن بمنهجية الوحي، ويصدق بصحة النصوص الدينية، ويمتثل للأحكام الشرعية، والتعاليم الدينية؟

أليس الاتجاه الروحي، يؤمن بالقيم الأخلاقية، والمعاني الروحية السامية، كسبيل للسمو والروحي والإنساني؟

والجواب بكل بساطة هو أنّ روح السفسطة هو إنكار وجود طريق يفيد العلم اليقيني الصادق المطلق، وبالتالي انسداد باب العلم والمعرفة الواقعية...وبما أننا قد بينا أنّ هذا النحو من المعرفة العلمية، لايتحقق أولا وبالذات إلا عن طريق المنهج العقلي البرهاني، وأنّ سائر المناهج المعرفية من تجريبية أو دينية أو روحانية، إنما تتوقف صلاحيتها المعرفية على هذا المنهج العقلي، فعليه فإنّ إنكار المنهج العقلي البرهاني، هو عودة لروح الشك والسفسطة.

نعم هم لم يسدوا باب المعرفة بالكلية كما فعل السوفسطائيون المتطرفون الأوائل، بل فتحوا أبواب أخرى من المعرفة، كالنص الديني، والقلب، والوجدان، والتجربة، ولكن ـ وكما بيّنا، وسنبين ـ أنّ كل هذه الأدوات المعرفية، مع التنكر للمنهج العقلي البرهاني، لاتسمن ولاتغني من جوع.

ومن أجل هذا، فقد أوقعتنا هذه الأدوات والمناهج المعرفية المجردة عن العقل البرهاني، في كل هذه المتاهات التي أشرنا إليها سابقا، وأغرقتنا في مشاكلها الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل أصبحنا نعيش في حالة من الفوضي والاضطراب، تحيط بنا كل ألوان الصراعات الدينية والمذهبية

والعرقية والسياسية، ولم تنفعنا تكنولوجيا ولا دين ولا روحانية، بل أصبحت كل هذه الأشياء مجرد مسكنات مؤقتة نلوذ بها لتسكين آلامنا، وهمومنا، ولنوهم أنفسنا بأننا نعيش نحواً من الحياة الإنسانية.

ومن هنا يتبين لنا أنّ وصفي لكل هذه الاتجاهات الفكرية المخالفة للمنهج العقلي البرهاني بالسفسطة، ليس من باب التعصب ولا الدوجماطيقية، لأنّ المنهج العقلي ليس منهجا خاصا بشخص أو طائفة، أو دين، أو قومية معينة، بل هو منهج واقعي، نابع من طبيعة الفطرة الإنسانية، ومتعلق بكل إنسان في هذه الحياة، ونحن كعقلانيين لانريد أن نفرض منهجا خاصا على الآخرين، بل نريد أن ننبههم فقط على الرجوع إلى عقولهم، والثقة بها بعد معرفتها، والانطلاق منها لبناء رؤيتهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية بنحو مستقل عن غيرهم، لكي يبنوا مستقبلهم بأنفسهم، بدلا من أن يكونوا جزءا من مستقبل غيرهم....وهذا ماسنسعى إليه من خلال هذه الحلقات الحوارية مع جميع فئات السفسطائيين، والذين لااختلاف حقيقي بينهم إلا في الدرجة، دون النوع.

المشهد الأول

حوار مع السفسطائي المطلق

الفصل الأول

○ السفسطائي: بعد الكثير من التأمل والتفكير، توصلت إلى هذه النتيجة، وهي أنه لايمكن لنا أن نعرف أي شيء عن الواقع، وكل مالدينا من معلومات ومعارف، ليست إلا مجرد خيالات وأوهام، لا علاقة لها بالواقع، فأنا لا أؤمن لابالعلم ولا بالفلسفة.

● الفيلسوف: هذا كلام غريب، ولايمكن أن يصدر من إنسان عاقل، يعي مايقول، أتدري ماهي لوازم كلامك هذا؟

○ السفسطائي: على أي حال هذا هو رأيي بكل صراحة، رأيي الذي أؤمن به، وأدافع عنه.

● الفيلسوف: أول مايلزم عن كلامك ياصديقي، انسداد باب التعليم والتعلم، وثانيا بطلان جميع النظريات الفلسفية والعلمية، ثالثا بطلان جميع الأديان والمذاهب السماوية، ورابعا سقوط جميع القيم والمبادئ الأخلاقية والاجتماعية!، يعني بكلمة واحدة ضياع الإنسانية.

○ السفسطائي: أنا لاأبالي بأي شيء من كل ماذكرته، فليكن مايكون، وأنا مازلت أصر على رأيي، وقناعاتي، ولايهمني مايترتب على كلامي من كل هذه النتائج.

● الفيلسوف: دعني أولا أسألك...ماهو الأمر الذي دعاك إلى تبني مثل

هذا الرأي الشاذ والغريب؟!

○ السفسطائي: أنا لم اتبن هذا الرأي من باب حب الظهور، أو الرغبة في الشذوذ والتميز عن الاخرين، بل بناء على شواهد قطعية دعتني لتبني هذا الرأي والتمسك به.

● الفيلسوف: وماهي تلك الشواهد القطعية التي دفعتك نحو التشكيك بأصول المعرفة الإنسانية؟

○ السفسطائي: ماتسموه أنتم أيها الفلاسفة بأصول المعرفة الإنسانية، على أي شيء قد ابتنى في الأساس من وجهة نظركم؟

● الفيلسوف: ابتنى أساساً على الحس والعقل كأداتين معرفيتين، ومنهما ظهرت سائر المناهج المعرفية التجريبية والاستقرائية، والعقلية التحليلية، والوجدانية والنقلية.

○ السفسطائي: فإذا تبين لك أنّ الحس والعقل، مجرد أداتين معرفتين خداعتين، لايمكن الوثوق بهما، ألا يتسبب ذلك في انهيار أصول المعرفة الإنسانية من وجهة نظرك؟

● الفيلسوف: بلا شك....إذا ثبت ذلك عندي، ولكن ماهي أدلتك التي دعتك للتشكيك في صلاحيتهما العلمية؟

○ السفسطائي: دعنا نبدأ أول بالحس، كنافذة أولى نطل من خلالها على

العالم الذي يحيط بنا، لنتأمل هل يعكس لنا الحس الأشياء كما هي بأمانة وصدق، أم أنه يحرّفها ويزيّفها؟

- الفيلسوف: لاشك أنّ الحس يعكس لنا الواقع الخارجي بكل امانة وصدق.

○ السفسطائي: إذا كان الحس صادقا، فكيف يرينا الشمس في حجم صغير جدا، مع كونها أكبر من ٣٠٠ألف ضعف حجم الأرض، وكيف يرينا العصا المستقيمة منكسرة في الماء، ونشاهد الأشياء الثابتة تتحرك من حولنا ونحن جالسين في القطار....وغيرها من الشواهد الكثيرة جدا، حتى أنه تم إحصاء أكثر من ثماني مئة خطأ، وكلها تكشف عن عدم مصداقيته، واستحالة الاعتماد عليه في كشف الواقع، وبما أنه هو النافذة الأولى لنا على العالم، والذي تتدفق من خلاله المعلومات إلى أذهاننا، فكل مايبتني على هذه المعلومات الحسية الزائفة مزيف مثلها.

- الفيلسوف: إذن هذا هو رأيك الذي اعتمدت عليه في التشكيك في الحس، فماذا عن العقل؟

○ السفسطائي: أخطاء العقل لاتعد ولاتحصى في شتى العلوم والمعارف، وهذا لايمكن لأحد أن ينكره، أو يتجاهله، وتبدل آراء العلماء بين الفينة والأخرى، وحصول الاختلافات الكثيرة بينهم، مع كونهم يدّعون أنهم من أهل العلم والمعرفة... فأين هي المعرفة الواقعية المزعومة؟!

- الفيلسوف: لا أحد ينكر هذه الأخطاء العقلية، ولكن ماهو سبب وقوعها من

وجهة نظرك؟

○ السفسطائي: السبب واضح، وهو عجز العقل عن كشف الواقع، لعدم وجود قواعد علمية موضوعية دقيقة تكشف لنا هذا الواقع بطريقة سليمة وصافية، فكل أحكامنا العقلية متأثرة بأمزجتنا الشخصية، وأعرافنا وثقافتنا الاجتماعية، ومذاهبنا الدينية، والفكرية التي ورثناها من المجتمع الذي عشنا وترعرعنا فيه، وكلها يمثل مانعا حقيقيا أمام التفكير المجرد والتريه، فكل مايتمخض عنا من آراء وأفكار وعقائد، هي مجرد معارف نسبية وهمية لاتعكس الواقع على الاطلاق.

● الفيلسوف: الان فهمت هذه الشبهات التي أوقعتك في الشك والسفسطة، وهذه نهاية طبيعية لكل من أراد أن يفكر بنحو عشوائي غير منضبط بالقواعد العقلية للتفكير، فيكون حاله كحال من أراد أن يسبح وسط الأمواج المتلاطمة دون أن يتعلم أصول السباحة، وضوابطها، فيكون مآله الغرق لامحالة، كما غرقت انت الان في بحر الشك والسفسطة.

○ السفسطائي: أنا طرحت عليك إشكالات واقعية، وبيّنت لكم أن الأدوات المعرفية التي يعتمد عليها مايسمون أنفسهم بالعلماء والفلاسفة، هي أدوات خدّاعة وغير أمينة، فأين هي تلك القواعد المنطقية المزعومة؟!... فإذا أمكنك أن تدفع هذه الإشكالات، رجعت عن رأيي، وسلمت لك، وإلا فينبغي عليك أن تسلم لما أقول.

● الفيلسوف: لابأس...أنا أردت فقط أن تكون جلستنا الأولى لمجرد الاستماع إلى آرائك واستدلالاتك، ثم أشرع بعد ذلك في الجلسات اللاحقة في الإجابة عليها، ولكن قبل أن أتركك، أريد أن أنبهك على شيء واحد فقط لكي تتأمل فيه إلى الجلسة القادمة.

● السفسطائي: ماهو هذا الشيء...تفضل.

○ الفيلسوف: أنت عندما اتهمت الحس والعقل بأنهما يخطئان في أحكامهما، كيف عرفت ذلك؟

● السفسطائي: لاأحد ينكر أخطاء الحس المذكورة، وأنت نفسك لم تنكر أخطاء العقل.

○ الفيلسوف: صحيح أنا لاأنكر ذلك، ولكن قصدي هو شيء اخر، وهو أنك كيف عرفت أنّ هذه الأحكام الحسية أو العقلية خاطئة، مع أنّ معرفة الخطأ فرع معرفة الصواب، لأّن الخطأ هو عدم الصواب، فإذا حكمنا بأن ٢X٢ ٢=٥ خطأ، فذلك لسبق معرفتنا أن الصواب هو ٢X٢=٤، فمن لم يعرف الصواب، لا يمكنه أن يعرف الخطأ، وأنت تدّعي ألا سبيل لمعرفة الصواب في الواقع!.

● السفسطائي: أمممم...هذا أمر يحتاج إلى شيء من التفكير، وسأسعى للإجابة عليه في جلستنا القادمة.

○ الفيلسوف: خذ وقتك من التفكير والتأمل، وإن كنت لاأدري كيف ستفكر، وعلى أي أساس تفكر، وأنت تنكر كل شيء، وتشكك في كل المبادئ والقوانين؟!...وعلى أي حال من هنا ينبغي أن تنطلق المعرفة الإنسانية، من نقطة الصفر، نقطة الشك المطلق.

الفصل الثاني

○ الفيلسوف: كنت قد سألتك في الجلسة السابقة عن كيفية معرفتك بأخطاء الحس والعقل، مع أنّ معرفة الخطأ فرع معرفة الصواب، وأنت تدعي أنه لاسبيل لنا إلى معرفة الصواب أصلا!.

● السفسطائي: في الواقع لقد تأملت كثيرا فيما قلته لي، ولم أجد جوابا مقنعا يمكن أن أقوله لك، مع تيقني من وجود أخطاء للحس والعقل، وعدم صلاحيتهما للمعرفة الواقعية.

○ الفيلسوف: سيأتي الكلام حول حقيقة هذه الأخطاء، والصلاحية المعرفية لهما، ولكن أردت فقط أن أنبهك على شيء واحد، وهو أنّ معرفتك بأخطاء الحس إنما كان عن طريق نفس الحس، واكتشافك لأخطاء العقل، إنما كان عن طريق نفس العقل، لأنك لم تكتشف تلك الأخطاء بعضلاتك، أو مزاجك الخاص.

● السفسطائي: نعم لابد أن نقول هكذا؛ لأننا لاندرك إلا بالحس أو العقل، ولكن كيف؟!

○ الفيلسوف: نعم كيف؟!...هذا ما أريد أن أسألك عنه، مع أنك تنكر الصلاحية المعرفية لهما، فكيف تعتمد عليهما، وتكتشف الصواب من خلالهما؟!!.

● السفسطائي: هذا فعلا لغز محير، ولكن كيف يمكنك أن تبرر صدور هذه الأخطاء منهما؟

○ الفيلسوف: لاتستعجل....سنتكلم حول ذلك...ولكن دعنى من فضلك أسألك سؤالا آخر يتعلق بأصل المعرفة البشرية.

● السفسطائي: ماهو... تفضل

○ الفيلسوف: أنت عندما تدعي استحالة المعرفة الواقعية مطلقا، فهل تعتقد أيضا بإمكانها؟

● السفسطائي: أمممم...لا بالطبع مستحيل أن أصدق بإمكانها، مع تصديقي باستحالتها

○ الفيلسوف: لماذا...ماالسبب؟...ماالشيء الذي منعك من ذلك؟

● هذا شيء واضح، لأنه يستلزم أن أكون متناقضا مع نفسي، وهو محال.

○ الفيلسوف: وأنت تعلم من نفسك أنه محال؟

● السفسطائي: طبعا...أكيد...لأن النقيضين لايجتمعان، فكيف أصدق كلامي وأكذبه في نفس الوقت.

○ الفيلسوف: ممتاز...إذا فقد تبين لك أنّ هناك شيئا تعلمه في الواقع، وهو قاعدة التناقض، مع أنك تدعي أننا لايمكن أن نعلم بأي شيء!

● السفسطائي: أممم...هذا أمر غريب بالفعل، ولكن....أنت تحرجني بالفعل بمثل هكذا أسئلة

○ الفيلسوف: أنا لم أقصد من حواري معك أن أجادلك، أو أحرجك، فليس هذا شأن الإنسان العاقل، بل أردت فقط أن أنبهك على إمكان التعرف على الواقع في الجملة، وأنّ طريق التعليم والبحث والتحقيق مفتوح على مصراعيه أمامنا.

● السفسطائي: أنا أُقدّر لك ذلك، ولكن تبقى نفس المشكلة قائمة، وهو فقدان الثقة في أدواتنا المعرفية من الحس والعقل، فماذا نفعل؟

○ الفيلسوف: هذا من حقك الان أن أرفع لك هذه الشكوك حول أدوات المعرفة، ولنبدأ من الحس

● السفسطائي: نعم هذا ما أتوق لسماعه منكم

○ الفيلسوف: إنّ الحس بأدواته التي نسميها بالحواس الخمس، وهي العين بالبصر، والأذن بالسمع، والأنف بالشم، واللسان بالذوق، وجلد البشرة باللمس، هي على ارتباط مباشر مع الأشياء في الخارج، وتنقل لنا بأمانة كل يقع عليها من ألوان وأشكال، وأصوات وأنغام، وروائح، وطعوم، وبرودة وسخونة، وذلك عن طريق الأعصاب التي تنقلها إلى المخ، كما أثبت العلم ذلك.

● السفسطائي: نعم صحيح....ولكن العلم أثبت أيضا أنها تتعرض في

مسارها إلى المخ، إلى سلسلة من التغيرات والتحولات الكيميائية والفيزيائية، فكيف تنقل لنا آثار الأشياء بأمانة؟!

○ الفيلسوف: وكيف عرف العلماء هذه التغيرات وتيقنوا بواقعيتها، أليس عن طريق نفس أدواتهم الحسية؟

● السفسطائي: أمممم....بجب أن نقول هكذا.

○ الفيلسوف: إذن فكيف اعتمدوا على الحس، وصدقوه في إدراكهم، ثم عادوا ليشككوا في أمانته؟!!...أليس هذا تناقض؟

● السفسطائي: نعم صحيح..ولكن كيف نجمع بينهما، أقصد بين أمانة الحس، وهذه التغيرات المشهودة؟

○ الفيلسوف: في الواقع أولا – إنّ هذه التغيرات المحسوسة لا تمثل حقيقة الإدراك، بل مجرد مقدمات إعدادية، لإدراك النفس الإنسانية هذه الصور الحسية، كما تبين في علم النفس الفلسفي، وثانيا – إن الحواس لاتحكم على وجود الأشياء في الخارج، أو أحوالها الخارجية، بل الحاكم هو العقل كما سأشرحه لك، فالحس كالكاميرا، أو المرآة ينقل لنا الأشياء بأمانة لارتباطه المباشر بها.

● السفسطائي: وماذا عن أخطاء الحس...هل تنكرها أيضا؟

○ الفيلسوف: أنا لاأنكر الأخطاء الحسية، ولكن الحس غير مسؤول عنها، بل هو مجرد ناقل أمين وليس بحاكم، والحاكم هو الذي يصيب ويخطأ.

- السفسطائي: ومن هو الحاكم إذن؟

○ الفيلسوف: الحاكم الوحيد – وكما ستعلم بعد ذلك – هوالعقل، وهو إذا تسرّع في أحكامه وقع في الخطأ، وإذا راعى قوانين وشرائط الإدراك أصاب كما سنبين ذلك لاحقا، ولو كان الحس هو المخطأ، ماعرفنا الصواب بالحس بعد ذلك، ولصحح الحس أخطاءه بعد ذلك.

- السفسطائي: يمكن أن توضح لي ذلك أكثر.

○ الفيلسوف: أكيد...ينبغي ألا تقبل مني، أو من غيري شيئا ليس بواضح عندك، لأن المفروض أنك إنسان عاقل، والعاقل لايقبل أن يلقنه احد شيئا لايفهمه... الان اضرب لك مثالا، أنت تقول أن الحس يرى الشمس في السماء صغيرة جدا، مع أنه قد اكتشف بعد ذلك أنها أكبر من الأرض بأكثر من ٣٠٠ ألف مرة.

- السفسطائي: نعم صحيح، هذا ماأثبته العلماء.

○ الفيلسوف: وكيف أثبتوا ذلك...أليس عن طريق التجارب والتحاليل الحسية؟

- السفسطائي: بلى...أكيد.

○ الفيلسوف: إذن فقد اعتمدوا على الحس في هذا الاستنتاج العلمي، فكيف يصدقون الحس، ويكذبونه في نفس الوقت؟!!...ثم إن الحس بعد هذا الاكتشاف هل أصبح يرى الشمس كبيرة أم مازال يراها صغيرة كما في الأول؟

- السفسطائي: لا لم يغير من رأيه بل مازال يراها صغيرة.

○ الفيلسوف: والحال أنّ المخطأ ينبغي أن يغير رأيه بعد أن تبين له الصواب، بل المخطأ الذي غير رأيه هو العقل، الذي تبين له بعد ذلك عن طريق التجربة، وبالاعتماد على مبادئه العقلية البديهية – كما سنبين ذلك – أنّ الأمر على خلاف مايشاهده الحس، وأنّ سبب مشاهدة الشمس صغيرة، هو بعدها الكبير جدا عن الأرض، والجسم البعيد نراه دائما صغيرا، ويزداد حجمه كلما اقترب منا، كحال السفينة الكبيرة نراها في قلب البحر صغيرة، ثم تكبر كلما اقتربت من الشاطئ.

● السفسطائي: الان اتضح لي الأمر، وارتفع اللبس والتناقض.

○ الفيلسوف: وقس على ذلك سائر ماتسميه بالأخطاء الحسية، حيث أن المخطأ فيها دائما هو العقل، وهو نفسه المصحح لأخطائه بالاعتماد على نفس الحس، ولكن عن طريق تكرار المشاهدات التجريبية، ومبادئه العقلية البديهية، والاعتماد على مساعدة الأدوات الحسية الأخرى، فالحس مجرد ناقل أمين، لايصيب ولايخطئ، بل ينقل لنا الأشياء كما وقعت عليه، ولكن طبعا بحسب قابلياته الطبيعية واستعداده الذاتي، وبشرط أن يكون سليما لا مصابا بالمرض.

● السفسطائي: سلمت معكم بأمانة الحس ونزاهته، ولكنكم قد اعترفتم بأخطاء العقل في أحكامه، فكيف يمكننا أن نعتمد عليه؟

○ الفيلسوف: نعم هذا سؤال مشروع، وفي محله، ولكنه يحتاج إلى جواب أكثر تفصيلا، فلنؤجله للقاء آخر قريب إن شاء الله.

الفصل الثالث

- السفسطائي: كنا قد تكلمنا في المرة الأخيرة عن صلاحية الحس العلمية، وقلتم أن الحس مجرد ناقل أمين، وأنه لايصيب ولايخطأ لأنه ليس بحاكم، وإنما الحاكم هو العقل.

- الفيلسوف، نعم صحيح.

- السفسطائي: وقلتم إنّ الخطأ هو من العقل، وهذا اعتراف منكم بعدم إمكان الاعتماد على الأحكام العقلية.

- الفيلسوف: نعم أنا قلت إنّ العقل يخطأ، ولكن لايعني ذلك أننا نفقد الثقة بالكلية في أحكامنا العقلية.

- السفسطائي: كيف ذلك؟

- الفيلسوف: أعيد عليك السؤال مرة أخرى، كيف عرفنا أن العقل يخطأ؟

- السفسطائي: أمممم...لاأدري....لقد فهمت منكم أن معرفة الخطأ فرع معرفة الصواب، فلابد أن يكون هناك من أدرك الصواب قبل ذلك.

- الفيلسوف: وليس إلا العقل نفسه، لأنه هو الحاكم الوحيد في مملكة الإنسان، ولكن أحكامه متفاوتة من ناحية الدقة، والقوة والضعف.

- السفسطائي: ممكن تبينوا كلامكم أكثر.

- الفيلسوف: العقل تتفاوت أحكامه بتفاوت مبادئه التي ينطلق منها، ويصدر الحكم على أساسها.

- السفسطائي: يعني أليست كل مبادئه عقلية؟

- لا بالطبع...قد تكون مبادئه حسية أو تجريبية مأخوذة من الحس والتجربة، وقد تكون استقرائية ظنية مأخوذة من الاستقراء، وكثيرا من الأحيان تكون مبادئه عرفية مأخوذة من البيئة التي نشأ وترعرع فيها، سواء كانت أعرافا دينية مذهبية أو أعرافا عامة اجتماعية ناشئة من العادات والتقاليد، وتارة تكون مبادئه مجرد مبادئ استحسانية نابعة من أذواق الإنسان، أو مصالحه الشخصية والفئوية.

- السفسطائي: وكل هذه الأحكام تعتبرها أحكاما عقلية؟!

○ الفيلسوف: أكيد...لذلك لاتجد إنساناً يدعي أنّ أحكامه واعتقاداته غير معقولة، أو أنه إنسان غير عاقل...ولكنك إذا تأملت كل هذه الأحكام العقلية العامة، ستجد أنها تتفاوت في الدقة والصلاحية العلمية، مع كونها أحكاما عقلية عامة.

- السفسطائي: كيف ذلك؟

○ الفيلسوف: من الواضح أنّ الأحكام العقلية الناشئة من المبادئ الحسية

والتجريبية والاستقرائية، هي أكثر دقة وعلمية وموضوعية من غيرها من الأحكام الناشئة من الأعراف الدينية والاجتماعية، والاستحسانات الشخصية الانفعالية، والتي مرجعها إلى أمور نسبية متغيرة بتغير البيئة، والثقافة، والمجتمعات البشرية، وتغير الأمزجة والأذواق، والمصالح الشخصية.

- السفسطائي: نعم صحيح...هناك فرق واضح بينها.

○ الفيلسوف: طبعا الأحكام العقلية المبتنية على الحس والتجربة، إذا لم يراع فيها الإنسان التأني والدقة العلمية، يمكن أن يقع في الخطأ والاشتباه، كما في الأخطاء التي نسبتها أنت إلى الحس، نتيجة التسرع في الحكم دون مراعاة ظروف الإدراك وشرائطة الموضوعية.

- السفسطائي: إلى هنا الأمر أصبح واضحا لي، ولكن إلى الان لم أفهم كيف يصحح العقل أخطاءه الحسية، بل وكيف يصحح اعتقاداته الفلسفية والدينية، والتي هي وراء الحس والتجربة؟

○ الفيلسوف: نعم هذا سؤال مشروع جدا، وهو ماكنت أتوقعه منك، وهنا بيت القصيد.

- السفسطائي: وهذا ماانتظره منكم؛ لأنه في الواقع هو ماأبحث عنه منذ البداية.

○ الفيلسوف: هناك نوع اخر من الأحكام العقلية تبتني على مبادئ عقلية

أولية تحليلية، واضحة بذاتها عند كل عقل سليم، وهذه المبادئ ننطلق منها بطريقة عفوية تلقائية في الكثير من أحكامنا، ولكن من دون أن نشعر بها، ولولاها مااستطعنا أن نصدق بأي شيء، بل لولاها مااستطعنا أن نشكك أو ننتقد أي شيء، فهذه المبادئ تمثل حجر الأساس للذهن البشري.

● السفسطائي: هذا أمر غريب، وقد شوقتني إلي معرفتها.

○ الفيلسوف: لعلي قد نبهتك على بعضها في أثناء حوارنا، عندما سألتك عن شكك، وأنك هل يمكن لك أن تشك ولاتشك في نفس اللحظة،ولما نفيت أنت ذلك، قلت لك أنّ ذلك لوجود مبدأ امتناع التناقض، وأنه لايمكن أن يجتمع الصدق والكذب معا، فلايمكنك أن تصدق مثلا بأنّ "كارل ماركس" شيوعي، وليس شيوعيا، أو أنّ "جون لوك" ليبرالي وليس ليبراليا، هذا نوع من الجنون... وهذا المبدأ هو أول المبادئ العقلية، وحجر الزاوية في التفكير الإنساني.

● السفسطائي: هذا يعني بكل بساطة، أنه بدون هذا المبدأ، يُشل الذهن الإنساني بالكلية، ولايستطيع أن يفكرعلى الاطلاق.

○ الفيلسوف: أكيد... لأن حكمك على أي شيء، هو سعيك لأن تثبته، أو أن تنفيه، فإذا اجتمع الإثبات والنفي، فكيف تحكم على الأشياء، بل أقول لايمكن لك حتى أن تشك في أي شيء، كما كنت تشك أنت قبل ذلك في كل شيء، لأن شكك نابع من عدم قدرتك على الإثبات والنفي، وعدم قدرتك أيضا على أن تجمع بينهما، فتقع تلقائيا في الشك.

● السفسطائي: هذا المبدأ واضح جدا عند عقل أي إنسان، ويعتمدعليه كل إنسان في تفكيره، وإن كان الكثيرربما لايلتفتون إليه في حياتهم كما تقولون... ولكن هل هناك مبادئ عقلية أخرى مثل هذا المبدأ، لأنه مع كونه ضروريا، فمن الواضح أنه غير كاف في تصحيح وتضمين كل أحكامنا واعتقاداتنا النظرية والعملية.

○ الفيلسوف: أنا لم أقل أنه كاف، ولم أقل أنه المبدأ العقلي الوحيد، ولكنه هو المبدأ الأول للتفكير الإنساني، ونحتاج إلى أن نتكلم عنه وعن غيره من المبادئ العقلية الراسخة في الطبيعة الإنسانية في جلسات لاحقة إن شاء الله... وكل شيء في وقته كما يقولون.

الفصل الرابع

○ السفسطائي: كنا نتحدث معا عن المبادئ العقلية التحليلية الأولى التي يعتمد عليها العقل الإنساني، وأنها مبادئ واضحة، وصحيحة في نفسها، وأشرتم إلى مبدأ امتناع التناقض، وقلتم أن هناك مبادئ عقلية أخرى مماثلة، ووعدتموني أن تذكروها في الجلسة اللاحقة.

● الفيلسوف إن هذه المبادئ العقلية هي مبادئ قبلية (priori) وليست (posteriori) مأخوذة من الحس والتجربة، أو الأعراف الاجتماعية أو المذاهب الدينية.

○ السفسطائي: يعني مبادئ أولى مستقلة.

● نعم بالضبط... فهناك لدينا "مبدأ الهوية" بمعنى أنّ الشيء هو نفسه، سواء قلنا أنّ الإنسان إنسان، أوالإنسان حيوان عاقل، أو أن الأعزب هوغير المتزوج، فثبوت الشيء لنفسه ضروري، وسلبه عنه مستحيل، وكذلك "الكل أعظم من جزئه"، و"مساوي المساوي مساو"، و"لازم مايلزم الشيء لازم لنفس الشيء" أيضا، وكذلك مبدأ إنّ " فاقد الشيء لايعطيه"، وأيضا "قانون السببية" البديهي، وهو أن أي شيء يحصل بعد العدم، فله سبب أخرجه من العدم إلى الوجود، لاستحالة أن يخرج الشيء نفسه من العدم إلى الوجود.

○ السفسطائي: ولكن قانون السببية قد أنكره بعض الفلاسفة الغربيين، مثل دافيد هيوم ومن جاء من بعده.

● الفيلسوف: نعم للأسف الشديد، نتيجة غفلتهم عن حقيقة هذا المبدأ البديهي، المركوز في أذهان جميع الناس.

○ هل يمكنكم التوضيح أكثر؟

● الفيلسوف:أنت عندما تسمع جرس البيت، أو التليفون، تنبعث للإجابة مباشرة، وتعلم أن هناك أحد خلف الباب، أو يريد أن يتحدث معك في التليفون، مع أنك لم تشاهده بعينيك، لأنّ الجرس لايدق بنفسه، فتتيقن من وجود سبب لذلك...نحن في الواقع إذا أنكرنا قانون العلية تنهار كل العلوم، وعلى رأسها العلوم الفيزيائية التي تبحث عن أسباب الظواهر الطبيعية، ولبطل علم الطب الباحث عن أسباب الأمراض الجسمية.

ثم إنّ الأمر المضحك أنك تجد مثل"دافيد هيوم" نفسه بعد تنكره لقانون السببية، يسعى للبحث عن السبب الذي يجعل الناس تعتقد بهذا القانون، وأرجعه إلى أسباب نفسية، وهذا إقرار منه لضرورة وجود سبب لكل ظاهرة، وإلا مابحث عن السبب، وهو تناقض ظاهر!!.

○ السفسطائي: هذا أمر في غاية الوضوح، فكيف غفل كبار فلاسفة الغرب. لاسيما فلاسفة التنوير والحداثة عن هذا الأمر.

● الفيلسوف: هذه مشكلة عميقة تكشف عن الخلل العميق في النظام التعليمي الحسي السطحي، الذي لم يولِ أي أهمية لدراسة العلوم العقلية بنحو عميق وتخصصي، مما أوقع الكثير من المفكرين في هذه الحيرة والاضطراب.

○ السفسطائي: ولكن ماهي أهمية مثل هذه المبادئ العقلية الأولى؟

● الفيلسوف: نحن بدون هذه المبادئ لايمكننا أن نحكم على أي شيء، أو ننتقد أي شيء، أو حتى نشكك في أي شيء، أو أن نبحث عن أسباب أي شيء، فهي مبادئ ضرورية للتفكير الإنساني، يستعملها كل الناس في حياتهم بنحو تلقائي، ويعتمدون عليها في حواراتهم وبحوثهم العلمية والفكرية.

○ السفسطائي: إذا كان الأمر هكذا، فكل الناس إذن يستفيدون من هذه المبادئ العقلية في حياتهم، وإذا كان كذلك فكلهم عقلاء، وينبغي أن تكون أفكارهم متشابهة، فلماذا كل هذه الاختلافات والانحرافات والتطرف، والصراعات السياسية والعرقية والمذهبية.

● الفيلسوف: هذا أمر طبيعي، وقد سبق وأن قلت لك إنّ هذه ليست مبادئ خاصة بطبقة من الناس دون أخرى، وليست مختصة بزمان أو مكان معين، أو ثقافة معينة، بل هي مبادئ فطرية نابعة من الطبيعة الذهنية الإنسانية المشتركة، والتي لولاها لوقعنا في الشلل الفكري المطلق.

○ السفسطائي: إذا كان الأمر كذلك، فلما كل هذه التشكيكات والاختلافات بين الناس؟!!.

● الفيلسوف: هذا هو بيت القصيد....لأنهم بكل بساطة لايكتفون باستعمال هذه المبادئ العقلية الصحيحة دائما، بل يخلطونها بغيرها من المبادئ غير العقلية في حياتهم، ويغفلون عنها، ويخالفونها في بعض الأحيان.

○ السفسطائي: كيف يفعلون ذلك، ولماذا؟!

● الفيلسوف: كما يفعلونها في حياتهم الصحّية، فكل إنسان مع أنه يحرص على رعاية القوانين الطبية من أجل المحافظة على صحته الجسمية، فإنّ أكثر الناس مع ذلك يتناولون أيضا الأطعمة والأشربة الضارة بصحتهم، ويمارسون الكثير من العادات غير الصحية، التي نهى عنها الأطباء، وذلك بدافع حبهم لها، وأنسهم بها، بحيث أصبحت جزءا لايتجزء من حياتهم اليومية.

○ السفسطائي: يعني أنت تريد أن تقول إنّ الناس تفعل نفس الشيء في حياتها الفكرية.

● أكيد...فهم أيضا ينطلقون من مبادئ عرفية اعتادوا عليها، أو مبادئ دينية مذهبية أحبوها وقدّسوها، أو مبادئ وهمية تخيلوها بأوهامهم، أو ينطلقون من مبادئ انفعالية عاطفية، بدافع من مصالحهم الشخصية أو الفئوية، وغير ذلك من المبادئ غير العقلية الخالصة.

○ العاقل:نعم نعم...فهمت...الان قد اتضح لي كل شيء حول هذا الموضوع، وأصبحت كأني أرى الواقع بعيني، وألمسه بيدي، وسؤالي الأخير لكم، هو كيف نعالج هذه المشكلة العامة عند الناس، والتي تمثل أزمة فكرية حقيقية

انعكست سلبا على حياتنا اليومية، وسببت الكثير من المآسي والمحن.

● الفيلسوف:الحل يكمن في التعرف على هذه المبادئ أولا بوعي كامل وبصيرة، لا أن نستعملها فقط بعفوية وتلقائية، ونتعلم كيف نبني أفكارنا ورؤيتنا عليها بنحو منطقي، بتعلم قوانين التفكير الصحيح في علمي المنطق، ومناهج المعرفة، ونتعلم كيف نطبقها في حياتنا، ونتعرف على أضدادها التي تمنعنا من التفكير الصحيح، ونسعى لأن نكون أوفياء لها، ولانقدم غيرها عليها من المبادئ العرفية أو المذهبية أو الوهمية والعاطفية....,عندها نكون قد وضعنا أقدامنا على أول طريق السلامة، والتحرر من المتاهة الفكرية التي تحيط بنا في كل زمان ومكان.

○ العاقل: أنا أشكركم من كل قلبي على تحريري من متاهة هذه الحيرة، وإخراجي من نفق الشك المظلم، عن طريق هذه المحاورة العقلية الإنسانية الحقيقية، وأعدكم بأن أسعى لتعلم قواعد التفكير الصحيح، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه كل إنسان أهمية هذه القواعد العلمية الإنسانية.

● الفيلسوف: لولا حسن نيتك، وموضوعيتك، وحرصك على طلب الحقيقة، ماخرجت من هذه المتاهة أصلا، وأنت الان تجني ثمرة مازرعته لنفسك، ثمرة العلم والمعرفة الواقعية.

المشهد الثاني

الحوار مع السفسطائي المادي

الفصل الأول

بعد أن فرغنا من محاورة السفسطائي المطلق الذي كان ينكر أصل إمكان العلم والمعرفة البشرية، ننتقل معا للحوار مع صنف اخر من السفسطائيين، وإن لم يسمهم الناس بالسفسطائيين، بل تلبسوا بلباس العلم، وانتسبوا إلى المنهج العلمي، مع تنكرهم للعقل البرهاني التجريدي، الذي هو الميزان الأول للعلم والمعرفة.

ونحن في الواقع لانقصد هنا العلماء الفيزيائيين والرياضيين الكبارالذين قامت النهضة العلمية والصناعية في الغرب على أكتافهم، من أمثال نيوتن، وجاليليو، وكيبلر، وفارادي، وماكسويل، واينشتين، ونيلز بور، وفيلمينج وغيرهم من النوابغ الذين خدموا العلم والبشرية، بل كلامنا مع بعض الفلاسفة الغربيين الذين أحيوا من جديد مناهج الشك والسفسطة من حيث يعلمون أو لايعلمون، من أمثال فرنسيس بيكون، وجون لوك، ودافيد هيوم، وكانط، ونيتشه، وأصحاب الوضعية المنطقية، وحلقة فيينا، وفلاسفة مابعد الحداثة، الذين شككوا في أدوات المعرفة، والعقل البرهاني التجريدي، والمبادئ العقلية الأولية، التي هي أساس العلم والمعرفة، وجعلوا الأصالة والحاكمية للمنهج الحسي التجريبي، فأوقعوا البشرية في مستنقع الشك والحيرة، وفي هذه المتاهة المادية.

والان دعونا نذهب لنستمتع معا بحوار جديد مع هذا السيناريو من السفسطة

المتلبسة بلباس العلم والحداثة:

○ السفسطائي: كيف حالك ياصديقي الفيلسوف...أراك مازلت غارقا في أفكارك وتأملاتك، وكأنك لاتعيش في هذا العالم الذي نعيش فيه.

● الفيلسوف: ماالذي تقصده بكلامك هذا؟

○ السفسطائي: أقصد متى تستيقظ من أحلامك، لتعيش معنا في عالمنا، لا في عالمك، وبرجك العاجي.

● الفيلسوف: وهل الفيلسوف لايعيش في العالم، وهل كل من يفكر بعمق، فهو عندك يعيش خارج العالم؟!

○ السفسطائي: ألم تسمع قول **برتراند رسل (إنّ الفيلسوف إنسان يمشي على الأرض، ورأسه فوق السحاب)**، فهو في عالم اخر، لايعنيه مايجري هنا على سطح الأرض.

● الفيلسوف: غريب جدا ماأسمعه منك...تقصد بكلامك هذا أنّ الفيلسوف يعيش في عالم الخيال والوهم، ولايلتفت إلى هذاالعالم؟ مع أنك تعلم أنّ الفلاسفة منذ بداية التاريخ، هم الذين أسسوا العلوم والفنون، والفيلسوف هو الإنسان الباحث عن الحقيقة والواقع، لا الوهم والخيال.

○ السفسطائي: أي حقيقة تتحدث عنها ياصديقي وأي واقع؟

● الفيلسوف: اتحدث عن حقيقة الأشياء في نفسها، لا في مظهرها السطحي،

أتحدث عن مبادئ الأشياء الأولى، وأسبابها العليا، والتي لايمكن معرفة حقائق الأشياء إلا بها، لاأسبابها القريبة منها.

○ السفسطائي: هههه...هذه أمور ولى زمانها ياعزيزي، وانتهى مفعولها العلمي، لقد ماتت الفلسفة والميتافيزيقا – كما يقول **نيتشه** – منذ زمان بعيد، وأنت مازلت تعيش هناك!.

● الفيلسوف: أنا لاأدري كيف تموت الفلسفة؟!، ولا أدري ماهو المسوغ الذي جعل نيتشه يعلن وفاة الفلسفة، ألا يعتبر نفسه هو، ويعتبره أتباعه فيلسوفاً، ألا تعلم أنّ كل من أراد أن ينتقد الفلسفة فقد تفلسف، كما يقول أفلاطون...ثم من الذي أعطاه الحق في هذا، وعلى أي حال هذا رأيه، وقد أعلن من قبله إخوانه السفسطائيون موت العلم والمعرفة منذ أكثر من ٢٧ قرن.

○ السفسطائي: هذا ليس فقط رأي نيتشه، بل رأي كل المفكرين الكبار في الغرب، الذين شيدوا أركان الحداثة والتنوير، وأنت تعلم ذلك جيدا.

● الفيلسوف: على أي حال...مع احترامي لكل هؤلاء، إلا أنني تعودت أن أعرف الحق بعقلي، لا بالرجال، وليس هناك أفضل من أن يكون الإنسان مستقلا في تفكيره، دون أن يكون تابعا لهذا أو ذاك....المهم دعنا ندخل في الموضوع...ماالذي تريد أن تقوله أنت بغض النظر عن كلام الاخرين.

○ السفسطائي: أنا اعتقد ياعزيزي أنّ الإنسان العاقل في زماننا هذا، لاينبغي له أن يصدق إلا بما يمكن أن تشاهده عيناه، أو تلمسه يداه من الأشياء.

● الفيلسوف: تقصد أنك تريد أن تحصرالمعرفة البشرية في إطار المحسوسات لاغير؟

○ السفسطائي: تماما هذا ماأريد أن أقوله بدقة.

● الفيلسوف: ولماذا كل هذا الإصرار، وهل تريد أن تحصر الموجود في المحسوس، بحيث يصبح كل شيء لانحسه، أو لايمكن أن نحسه فهو معدوم، وغير موجود؟

○ السفسطائي: لا...أرجوك، أنا لاشأن لي بما هوموجود أو معدوم في هذا العالم، أنا أتكلم عن حدود المعرفة البشرية، وأنها لاينبغي لها أن تتخطى المحسوسات، وتتورط في أمور خرافية وراء الحس، أمور لايمكن إخضاعها للتجربة الحسية الموضوعية.

● الفيلسوف: نعم... واضح ماتقوله...ولكن اسمح لي أولا أن أبدأ معك من البداية، وأسألك عن الأسباب أو الدوافع التي دعتك إلى ذلك الاعتقاد؟

○ السفسطائي: هذا سؤال مشروع، وكنت أتوقع منك أن تسألني هذا السؤال.... في الواقع ليس هناك سبب واحد، بل أسباب كثيرة، هي التي دعتني، ودعت كل إنسان عاقل حر، أن يتبني هذا المنهج العلمي الجديد.

● الفيلسوف: وأنا كلّي أذن صاغية لك، فالفيلسوف يبحث عن الحقيقة أينما وجدها، وليس عنده أحكام مسبقة غير واضحة ليتعصب لها... تفضل... ماهي تلك الأسباب؟

○ السفسطائي: أولا: إنّ البشرية قد عانت ماعانت منذ قديم الزمان من الأفكار الأسطورية والخرافية التي عطلت العقول، وأهدرت الكرامة الإنسانية، وأدت إلى تخلف البشرية لقرون مديدة.

● الفيلسوف: نعم تقصد عصور الميثولوجيا، والأساطير التي غلبت عليها الاعتقاد بالألهة، والجن والشياطين والطوطم والأرواح الشريرة، كما نقله هوميروس في الإلياذة قبل الميلاد.

○ السفسطائي: نعم بالضبط هكذا...وثانيا: إنّ البشرية قد عانت الكثيرالكثير ممن انتسبوا إلى الأديان السماوية المختلفة، سواء من رجال دين أو متدينين، من أصحاب العقول المتحجرة، والذين حاربوا العلم والعلماء، وزرعوا الحقد والتعصب في قلوب الناس، وفرقوا بين االشعوب، وأسسوا للاستبداد باسم السماء، وأنشؤا محاكم التفتيش، وأحرقوا الأبرياء، واشعلوا الحروب والصراعات الدينية والمذهبية على مر التاريخ....وكل هذه الأمور لاتخفى على أمثالكم.

● الفيلسوف: نعم نعم... أنا اتفهم جيدا كل ماتقوله، ولكن لم أفهم إلى الان ماعلاقة كل هذا بموت الفلسفة، وإقصاء العقل الفلسفي، مع أنّ الفلاسفة كانوا من أكبر ضحايا هؤلاء على مر التاريخ.

○ السفسطائي: لأنه بكل بساطة ياصديقي أنّ العقل الفلسفي الماورائي، والمجرد عن الحس والتجربة، وهذا النحو من التفكير غير العلمي، هو الذي فتح الباب على مصراعيه أمام دخول كل هذه الغيبيات، والخرافات، والأساطير،

ومهد الطريق لتغلغلها بين الناس، وماندعوا إليه كعلماء محدثين، هو إغلاق هذا الباب بالكلية، والاكتفاء بالمنطق العلمي الجديد كما سماه بذلك **فرنسيس بيكون**، وهو المنهج العلمي القائم على الحس والتجربة العلمية، لاالتأمل العقلي الحدسي الصرف، كما كان يفعل الفلاسفة.

● الفيلسوف: يعني أنت تعتقد بأن العقل الفلسفي، هو أساس كل المشاكل الفكرية، ومنشأ كل العقائد الخرافية، وأننا لكي نتخلص من كل ذلك، علينا الاكتفاء بالمنهج العلمي التجريبي لاغير، ونسيان المنهج العقلي التجريدي.

○ السفسطائي: نعم هذا ماأريد أن أقوله بدقة....وهناك أسباب ومبررات أخرى يمكن أن أذكرها لكم إن كان لديكم وقت.

● الفيلسوف: للأسف الشديد، ليس لدي الوقت الكافي هذه الليلة لأستمع إلى بقية كلامكم، فلنؤجلها إلى ليلة أخرى، نظرا لأهمية الموضوع، وأنا في نفس الوقت اتفهم جيدا ماتقولون، وأقدّره، ومازلت أفضل أن أُنصت لبقية الأسباب والدوافع، لأتأمل فيها أولا، ثم نتناقش حولها بعد ذلك بالتحليل والنقد الموضوعي....شكرا لكم على أي حال.

الفصل الثاني

● الفيلسوف: استمعت إليك ياصديقي في جلستنا الأولى، وأنت تحدثني عن الأسباب التي دفعتك للاعتقاد بضرورة إقصاء العقل التجريدي الميتافيزيقي عن ساحة العلم والمعرفة، وذكرت منها أنّ هذا النحو من التفكير المجرد عن الحس، قد فتح على مر التاريخ أبواب الأساطيروالخرافات على مصراعيها، كما مهد الأرضية للاعتقادات الدينية الغيبية المنسوبة إلى السماء، والتي تسببت في ظهور التحجر والتعصب، وشتى ألوان الصراعات الدينية والمذهبية...وأنا الان أرغب في الاستماع لبقية الأسباب والدوافع؛ لكي اتعرّف بدقة عن مبررات اتجاهك الحسي التجريبي.

○ السفسطائي: نعم....السبب الثالث هو أنّ الأحكام العقلية التأملية المجردة، ليست في الواقع أحكام موضوعية عينية ملموسة، كالأحكام الفيزيائية والرياضية، بل مجرد توهمات حدسية نابعة من مزاج صاحبها الشخصي، وبالتالي لايمكن أن نعتبرها أحكاما علمية، وكما يقول دافيد هيوم "إذا نظرت إلى كتب الفلسفة والإلهيات، فلنسأل أنفسنا، هل بها استدلال رياضي، أو هل بها استدلال تجريبي فيزيائي، فإن لم تجد فألقها في النار، فليس فيها سوى وهم وسفسطة".

● الفيلسوف: نعم أتذكر أنه قال هذه العبارة في كتابه "تحقيق في الذهن البشري".

○ السفسطائي: نعم صحيح...وأما السبب الرابع فهو أنّ مُدخلات العقل المعرفية هي مأخوذة من المحسوسات لاغير، وبالتالي فلايمكن للعقل بعد ذلك أن ينتج منها أحكاما وراء الحس، ويسميها بالميتافيزيقا، وهذا الذي دفع "بكانط" رائد التنوير الغربي بأن ينتقد العقل التجريدي في كتابه المشهور "نقد العقل المحض"، ويذهب إلى أنّ العقل عاجز عن الخوض بنفسه في الموضوعات الغيبية، وأنّ مجاله الطبيعي والوحيد هو الفيزياء والرياضيات، لأنّ موضوعاتها محسوسة، وبالتالي تكون أحكام العقل فيها واضحة وموضوعية.

● الفيلسوف: نعم أتذكر ذلك جيدا، لذلك فأنا اعتبره بحق المتحدث الرسمي باسم جميع الاتجاهات المعادية للعقل التجريدي، وكان له أكبر الأثر على كل من جاء بعده من الفلاسفة الغربيين، لاسيما أصحاب الوضعية المنطقية (POSITIVISM).

○ السفسطائي: نعم بالضبط...وهذا يذكرني ب(كارناب) وهو من الوضعيين المشهورين في "حلقة فيينا" في القرن العشرين، وهو القائل في كتابه"المسائل الزائفة في الفلسفة" بأنّ الموضوعات والمفاهيم الغيبية غير المحسوسة لامعنى لها، أي لايمكن أن نتصورها، وبالتالي فلايمكن أن نصدق بها، لاستحالة إخضاعها للتجربة العلمية الحسية، وبالتالي فهي موضوعات فارغة، لاواقعية لها

(nonsense)، وهذا أيضا من جملة الأسباب التي دفعتني للابتعاد عن العقل التجريدي.

● الفيلسوف: إذن هذه هي جملة الأسباب التى تأثرتم بها، ودفعتكم بدورها إلى تبني الاتجاه الحسي، والتنكر للمنهج العقلي التجريدي.

○ السفسطائي: نعم، وأنا مقتنع تماما بذلك، وافتخر بأنني أتبنى المنهج العلمي، وهو منهج كل العلماء الأحرار التنويرين، والذين حرروا أنفسهم من كل الأوهام والخيالات، التي حالت بين الإنسانية وبين الحرية والتطور، والارتقاء، ووطدت للاستبداد والتخلف على مر التاريخ.

● الفيلسوف: يعني أنت ترى أنّ سبب دخول أوروبا في النفق المظلم للقرون الوسطى، ووقوعها تحت سلطة الاستبداد الديني والسياسي، هو العقل التجريدي، وأنها بمجرد تحررها منه، تحررت تلقائيا من هذا الاستبداد، ودخلت في عصر الحداثة والتنوير.

○ السفسطائي: لاشك في ذلك ياعزيزي، ولم يكن ذلك من محض الصدفة، بل فلاسفة الحداثة والتنويرهم وحدهم من أدرك ذلك جيدا، فوجهوا سهامهم إلى هذا النحو من التفكير التأملي العقيم، فانتقلوا بعدها من الحالة الانفعالية، ووهم البحث عن الحقائق الغيبية، إلى الحالة الفعلية لاستكشاف الأسباب الطبيعية، وتسخير الطبيعة من أجل منفعة الإنسانية، فتحققت هذه الثورة العلمية، والنهضة الصناعية العظيمة، والتي مازلنا نعيش آثارها الإيجابية إلى يومنا هذا.

● الفيلسوف: جيد...هذا رأيك على أي حال، وأنا مع احترامي لكم كإنسان مفكر، إلا أنّ هذا لايمنعني بالطبع من انتقاده، وبيان نقاط الضعف والخلل فيه.

○ السفسطائي: بالطبع بالطبع..أنا أؤمن بحرية الرأي، والاعتقاد، وقبول الاخر، وهذا من محاسن عصر الحداثة والتنوير، وأنا أعدك بأن أنصت لكلامك، كما أنصت أنت لكلامي، ولكن بشرط أن يكون كلامك علميا موضوعيا واضحا، وبعيدا عن الألغاز الوهمية، والمصادرات غير العلمية.

● الفيلسوف: وأنا أعدك من جانبي أن ألتزم بما تقول من الوضوح والموضوعية، على أن نتجنب جميعا التعصب للآراء مهما كان قائلها، فالإنسان العاقل والحر في الحقيقة، هو الإنسان الذي يتمتع بالاستقلالية الفكرية، دون أن يقلد أحدا من الأكابرفي تفكيره، فالتقليد والتبعية الفكرية العمياء هو أمر مذموم ومخالف للكرامة الإنسانية، سواء كان تقليد السلف الماضي، أو تقليد المحدثين والمعاصرين....فإلى لقاء آخر قريب إن شاء الله.

الفصل الثالث

○ السفسطائي المادي: بعد أن بيّنت لكم كل مافي عقلي وقلبي من أفكار ورؤى حول منهجي العلمي الذي اعتقده، وأؤمن به كنمط وأسلوب في حياتي، فأنا في هذه الليلة أود الاستماع إلى وجهة نظركم المقابلة، وبصدر رحب، ومهما كانت النتائج.

● الفيلسوف: أولا أشكركم على سعة صدركم، واستعدادكم للإنصات إلى الرأي المخالف، فنحن في أمس الحاجة إلى مثل هذه الروح الرياضية في حواراتنا الفكرية، حتى تكون بنّاءة ونافعة.

وثانيا – وكماستعرف لاحقا – إنّ ماسأقوله لكم ليس مجرد وجهة نظرشخصية، بل هي نظرية عامة إنسانية، وموضوعية، وإلا إذا كانت مجرد مسألة شخصية ذوقية، مااستحقت أن أطرحها عليكم في حوار فكري بنّاء، يُراد منه معرفة الواقع والحقيقة التي نريد أن نؤسس عليها رؤيتنا العامة في الحياة، ونبني عليها أسلوب حياتنا اليومية.

○ السفسطائي المادي: يعني أنت ترى أنّ الحوار الفكري لاينبغي أن نطرح فيه آراءنا الشخصية، حتى لايتحول إلى عبث وتضييع للوقت؟!

● الفيلسوف: هذا يعتمد على طبيعة الحوار، وغايته...فإذا كان الحوار

يتعلق بمسائل جزئية، لاسبيل للمنهج العقلي البرهاني، أو المنهج العلمي التجريبي إليها، أو كان الهدف من الحوار مجرد التسلية، وقضاء أوقات ممتعة، كحوارات الصالونات والمقاهي، فلابأس أن نبين آراءنا الشخصية والذوقية فيها، ليمر الوقت، وتنتهي السهرة، وينتهي معها كل شيء.

أما إذا كان الهدف هو اكتشاف المنهج المعرفي الصحيح في التفكير، أوتأسيس الرؤية الفلسفية للحياة، والتي يمكن أن تؤثر على مسيرنا، ومصيرنا في الحياة والوجود، فاعتقد أنّ الأمرأخطر بكثير من أن نجعله موضوعا للتسلية، أو مجرد فرصة للتعبير، والتنفيس عن وجهات نظرنا الشخصية.

○ السفسطائي المادي: أممم..ألمس فيكم جدية وصرامة أكثر من اللازم، والظاهر إن أغلب حوارات الناس لاتعجبك...على أي حال هذا رأيك.. والمهم هو ماستقولونه بعد ذلك.

● الفيلسوف: الأمر الاخر أنه سيتبين لكم عن قريب، أن كلامي لايضاد كلامكم، حيث إنني أؤمن بالمنهج العلمي التجريبي، ولكن لاأحصر المعرفة البشرية فيه، كما تفعلون، بل الأمر أوسع من ذلك بكثير.

○ السفسطائي المادي: هذا أمر يبشر بالخير، ويجعلني أشتاق أكثر لسماع ماستقوله، ولكن لاتظن أنني سأستسلم لك بسهولة، فأنا على بيّنة من صحة اتجاهي الفكري، وليس اعتقادي هذا نابع من التقليد الأعمى، كما يفعل عوام الناس، بل قائم على أسس علمية، ودوافع كثيرة قد ذكرتها لكم في حواراتنا السابقة.

● الفيلسوف: جيد...دعنا نبدأ إذن من حيث بدأتم، في حصركم المعرفة الإنسانية في المعرفة الحسية والتجريبية، كما يعتقد فلاسفة الحداثة والتنويرفي الغرب.

○ السفسطائي المادي: نعم من هنا ينبغي علينا أن نبدأ، لأنّ هذا هو بيت القصيد.

● الفيلسوف: أريد أن أسألك أولا عن العدالة والحرية، هل تؤمن بهما؟

○ السفسطائي المادي: أكيد...وهل هناك قيمة أفضل منهما في الحياة، فلا حياة مع الظلم والاستبداد.

● الفيلسوف: يعني تؤمن بوجودهما في الواقع، وأنهما ليسا من المعاني الفارغة.

○ السفسطائي المادي: بالطبع أؤمن بذلك، بل أنا على أتم الاستعداد للنضال والكفاح من أجلهما.

● الفيلسوف: حسنا...الان دعني أسألك...هل تُحس بهما؟، مالونهما؟ ماشكلهما؟ ماطعمهما؟...هل يمكنك أن تلمسهما أو تشمهما؟

○ السفسطائي المادي: ماذا تقصد بكلامك هذا؟!... أتريد أن تسخر مني!

● الفيلسوف: ولماذا أسخر منك، ونحن قد تعاهدنا على المحبة والاحترام المتبادل... هذا مجرد سؤال بسيط، وأريد منك جوابا بسيطا مثله.

○ السفسطائي المادي: جوابي واضح، وهو أنهما لاشكل ولا لون ولاطعم لهما، وهذا يعرفه كل إنسان عاقل.

● الفيلسوف: نعم صحيح...والسبب في ذلك أنهما غير محسوسين، مع كونهما أمرين موجودين وواقعيين، ونناضل من أجلهما باعترافكم

○ السفسطائي المادي: أمممم...يعني ماذا تريد أن تقول؟

● الفيلسوف: كلامي واضح، وأنت تعلم جيدا ماذا اقصد...لقد تبيّن لك بكل وضوح أنّ هناك اشياء واقعية موجودة، نعلمها، مع أنها غير محسوسة، وأنت تحصر العلم في المحسوس لاغير...فقد ثبت لنا أن الموجود أعم من المحسوس وغير المحسوس.

○ السفسطائي المادي: ولكن هذه مجرد معاني عامة، وليست أشخاصا في الخارج.

● الفيلسوف: أنا أعرف أنها معاني عامة معقولة، وليست شخصية محسوسة، ولكنها ليست معاني فارغة كاذبة موهومة، كما يزعم أصحاب الوضعية المنطقية، وإلا مااستحقت أن نطالب بها، ونناضل من أجلها.

○ السفسطائي المادي: صحيح، ولكن السؤال هو أنه كيف أدركنا هذه المعاني غير المحسوسة...هذا أمر غريب.

● الفيلسوف: أدركناها بعقولنا الإنسانية ياناصح، وليس هذا بالأمر

الغريب، نعم هو غريب على من حصر المعرفة الإنسانية فيما تدركه حواسه، وجعل عقله في عينيه.

○ السفسطائي المادي: وهل هناك معان أخرى معقولة كذلك؟

● الفيلسوف: بالتأكيد...هناك الإنسانية، والعقلانية، والشرف والعزة والكرامة، والصواب والخطأ.....,غيرها من المعان الصحيحة الواقعية، والتي صار بها الإنسان إنسانا...ونحن عندما نجعل هذه المعاني فارغة وكاذبة، تصبح عقولنا المدركة لها كذلك، فلايبقى أي فرق بين الإنسان والحيوان...فأين الكرامة الإنسانية؟!.

○ السفسطائي المادي: نعم...هذه مسألة اعترف أنها جديدة بالنسبة لي، وليس عندي جواب عليها في الوقت الحاضر، وأؤثر الانتظار لتكملوا كلامكم، قبل التعليق عليه، فهل لديكم بيان اخر؟

● الفيلسوف: نحن مازلنا في بداية الطريق...ولكن أنا أكتفي بهذا التنبيه هذه الليلة، وأرجو أن تتأملوا فيه جيدا حتى موعدنا في الجلسة اللاحقة، حيث سنغوص أكثر في وادي العقل والمعقولات، لنستكشف سويا حقيقة الإنسانية.

الفصل الرابع

○ السفسطائي المادي: كنت تتحدث معي في الجلسة السابقة حول بعض المعاني الواقعية غير المحسوسة، مثل الحرية والعدالة، وكنت تحاول أن تثبت لي من خلال ذلك أن المعرفة البشرية أعم وأوسع من عالم المحسوسات.

● الفيلسوف: نعم هذا بالفعل ماأصبو إليه، لأنّ حصر المعرفة الإنسانية في عالم المحسوسات الضيق، فيه ظلم كبير للإنسان، وتحجيم لطاقاته، وتقييد لحرياته الفكرية، بل إهداراً لكرامته الإنسانية.

○ السفسطائي المادي: ألا ترى في هذا الكلام الكثير من المبالغات...؟، فنحن أصحاب المنهج العلمي التجريبي، لانقصد بمنهجنا هذا الإساءة لأي إنسان، بل نرى أنّ الاعتماد على هذا المنهج الحسي، هو الذي يطور الإنسان ويحرره من الأوهام والخرافات التي سيطرت عليه في الأزمان الماضية، وقد أثبتنا ذلك بالفعل، لابمجرد الكلام والشعارات.

● الفيلسوف: لاتنس أنّ أصحاب المنهج العقلي، لاينكرون أهمية المنهج الحسي التجريبي في تطوير الحياة المادية للإنسان، ولقد كان كل الفلاسفة القدماء مثل أرسطو، والفارابي، وابن سينا، والطوسي، وابن رشد، يؤلفون في الفيزياء، والكيمياء، والطب والهندسة وعلم النجوم، وكانت لهم مساهمات

إيجابية ونافعة في كل هذه الحقول العلمية، بحسب ماتوفر لهم من وسائل وتقنيات محدودة...ولكن كلامي معكم في حصر المعرفة البشرية في هذا المنهج الحسي لاغير، أو محاولة إعمال المنهج الحسي فيما وراء الطبيعة.

○ السفسطائي المادي: لابأس...إذن دعنا نكمل كلامكم حول واقعية المعرفة غير الحسية.

● الفيلسوف: هناك شيء مهم للغاية ينبغي أن تلتفت إليه جيداً قبل أي شيء، غير تلك المعاني الواقعية غير المحسوسة، التي ذكرتها لكم.

○ السفسطائي المادي: وماهو هذا الشيء؟

● الفيلسوف: إنّ هناك مبادئ أولية يعتمد عليها أي تفكير، سواء كان حسياً أو غير حسي، وأنه لولا هذه المبادئ الأولى مااستطعنا أن نفكر أصلا، ولا أن ندخل المختبر لنستكشف الظواهر الطبيعية المختلفة، ولبطلت كل نظرياتنا العلمية، وتجاربنا الحسية... وهذه المبادئ مع أهميتها وضرورتها الحياتية، هي مبادئ غير محسوسة.

○ السفسطائي المادي: أووه!...لهذه الدرجة!..فماهي ياترى؟

● الفيلسوف: دعني أسألك الان عن أي حكم تريد أن تصدره الان، او اعتقاد تريد أن تثبته، هل يجتمع إثباتك له، مع نفيك إياه، وهل النتيجة التي تصل إليها بالتجربة هل يجتمع صدقها مع كذبها؟

○ السفسطائي المادي: ماهذا السؤال الغريب!... كيف يجتمع الصدق والكذب معا، وهل هذا إلا هلوسة وخزعبلات.

● الفيلسوف: إذن امتناع اجتماع الإثبات والنفي، أو الصدق والكذب من المبادئ الواقعية التي ينبغي التسليم بها قبل إصدار أي حكم، أو تبني أي رأي؟

○ السفسطائي المادي: هذا أمر بديهي ومسلّم عند كل إنسان عاقل، بل لايمكن حتى التشكيك فيه، وإلا اجتمع الشك مع اللاشك.

● الفيلسوف: تمام.....وهل هذا المبدأ الضروري الواقعي، والذي يبتني عليه كل الأحكام العلمية، مبدأ محسوس، له شكل ولون، وطعم، أم أنه مبدأ معقول محض؟

○ السفسطائي المادي: تاااني...أنت مصر على أن تحرجني هههه... هذه المرة الجواب أصعب.

● الفيلسوف: دعني أسألك مرة أخرى...عن علماء الفيزياء أو البيولوجي، أو الطب مثلا، عما ماذا يبحثون في مختبراتهم بمنهجهم العلمي؟

○ السفسطائي المادي: غالبا مايبحثون عن أسباب الظواهر الطبيعية، أو أسباب الأمراض الخفية.

● الفيلسوف: وكيف عرفوا أنّ للظواهر الطبيعية الحادثة في هذا العالم، أو الأمراض التي تصيب جسم الإنسان، لها أسبابها الذاتية، وأنها لم تكن

مجرد صدفة محضة بلا أي سبب؟ حتى لايكلفوا أنفسهم عناء البحث العلمي عن الأسباب.

○ السفسطائي المادي: وهل يمكن هذا؟! أقصد هل يمكن أن تقع ظواهر كونية، أو أمراض جسمية بل أي سبب!

● الفيلسوف: وما الذي يمنعك من التصديق بمثل هذا؟

○ السفسطائي المادي: وكيف تخرج الأشياء من العدم إلى الوجود بلاسبب، فالعدم لاشيء، فكيف يخرج منه شيء!...هذا أمر غير معقول أصلا.

● الفيلسوف: وهذا مانسميه بمبدأ السببية، وهو مبدأ عقلي بامتياز، وغير محسوس أيضا، ومع بداهته الشديدة فقد انكره دافيد هيوم فيلسوف التنوير والحداثة بسفسطته المعهودة، وأرجعه إلى مجرد تلازمات، وتواليات اتفاقية، أوهمتنا وجود علاقة ضرورية بين الأسباب ومسبباتها، وقد أوقع فلاسفة العلم من بعده في حيرة علمية كبيرة، حيث أضر انكاره بتعميم نتائج التجارب العلمية، واستحالة التنبؤ بمستقبل العلاقة بين الأثر والمؤثر،حيث تنتفي العلاقة الضرورية بين الأسباب وآثارها، ولذلك يصرح أنه لن يتعجب إذا وجد النار لاتحرق في يوم من الأيام، بل تبرد،...والغريبة أنه مع إنكاره لقانون السببية، شرع في البحث عن الأسباب التي أوقعت الناس في الاعتقاد بهذا المبدأ، وأرجعها إلى مبدأ نفسي سيكولوجي غير واقعي، وهو تناقض ظاهر، حيث مع انكار هذا القانون، لامعنى للبحث عن الأسباب.

○ السفسطائي المادي: في الحقيقة لاأدري ماذا أقول لكم، ولايمكنني إلا التسليم بوجود مبادئ علمية غير محسوسة، وإلا لبطلت الصلاحية العلمية للمنهج الحسي التجريبي، ولا أدري كيف كنت غافلاً عن تلك المبادئ العقلية الواضحة!

● الفيلسوف: لست وحدك الغافل عنها، بل أكثر الناس، حتى المفكرين منهم، فهم يستعملونها بتلقائية في حياتهم اليومية، ولايعلمونها، ويبنون عليها أفكارهم ونظرياتهم، ثم يتنكرون لها، فيكون مثلهم كالأسماك التي تعيش وتتنفس في البحر، وتأكل من رزقه، ولاتعرفه.

○ السفسطائي المادي: هذا صحيح وواقع بالفعل.

● الفيلسوف: إذن قد تبين لك أن هناك معرفة بشرية عقلية واقعية غير محسوسة، وأنها هي الأصل والأساس لسائر المعارف البشرية، وأنّ العقل، وإن كان يعتمد على الحس كمنبع للمعلومات والتصورات الأولى، إلا أنّ للعقل تصوراته وأحكامه الذاتية المستقلة، وأنه قادر على أن يستكشف بنفسه عوالم ماوراء الطبيعة، على خلاف ماتوهم بيكون، ولوك، وهيوم، وكانط، وأصحاب المنطق الوضعي.

○ السفسطائي المادي: هذا واضح الان من الناحية النظرية، ولكن تبقى المشكلة الحقيقية من الناحية العملية، وهي التي ربما شكلت الدافع الكامن وراء إنكار هذه المبادئ أو تجاهلها....وهو ماكنت أخبرتك به من أنّ الاعتقاد بما ليس بمحسوس، وعدم الاكتفاء بالمنهج العلمي، قد فتح علينا أبواب الخرافة

على مصراعيه، ووطأ الأرضية لظهور الإدعاءات، والاستبداد الديني والسياسي على مر التاريخ، الأمر الذي أدى إلى تخلف البشرية، وانحطاطها قرون مديدة.

- الفيلسوف: نعم من حقك أن تسألني عن ذلك أيضاً، ولكن من الأفضل أن تعطي لنفسك الفرصة المناسبة لهضم واستيعاب ماقلناه لكم، وإعادة ترتيب ذهنك من جديد، حتى نستطيع في اللقاء القادم أن نستجلي حقيقة هذه المشكلة العملية، والتي لايمكن انكار وقوعها، ومآسيها في الماضي والحاضر.

الفصل الخامس

○ السفسطائي المادي: أثبتم لي في الحقيقة في الجلسة السابقة بكل وضوح، وموضوعية، أنّ المعرفة البشرية أعم من المعرفة الحسية، وغير الحسية، وأنّ المعرفة العقلية المحضة هي أساس كل معرفة.

● الفيلسوف: نعم هذا صحيح، وواقع، وليس مجرد وجهة نظرشخصية.

○ السفسطائي المادي: نعم أتفهم ذلك....ولكن يبقى هذا الكلام مقبولا عندي على المستوى النظري، وغير مستساغ على المستوى العملي، للأسبا ب التي ذكرتها لكم المرة الفائتة، وهي أنّ فتح باب الميتافيزيقا، والمعارف الغيبية، ينفتح معه أبواب الخرافة، والتعصب، والتطرف، والاستبداد الديني والسياسي، وهذا هو في الواقع الدافع الحقيقي الذي دعا فلاسفة التنوير في الغرب إلى غلق هذا الباب بالكلية.

● الفيلسوف: أنا لاأنكر وقوع مثل هذه الأمور على مر التاريخ، الخرافات، والتعصب، والتطرف، والاستبداد، ولكن دعنا نحللها بهدوء، ونستكشف أسبابها، وهل أن لها علاقة باستعمال العقل الإنساني الميتافيزيقي، أم لها مناشيء أخرى؟

○ السفسطائي المادي: هم جميعا يدّعون الارتباط بالغيب، فهذا الإدعاء هو مصدرها.

- الفيلسوف: يعني في نظرك الذين لايؤمنون بالغيب، ويحصرون المعرفة البشرية في المحسوسات، ليس لديهم تلك المشاكل؟

○ السفسطائي: ماذا تقصد؟

- الفيلسوف: أليس هناك من الماديين من يؤمن بوجود كائنات فضائية تريد أن تدمر هذا العالم،وقد انتجت هوليوود عشرات الأفلام حول هذه الخرافة كحرب النجوم (Star war)، وغيرها...أليس هناك من الفيزيائيين الكبار مثل "**ستيفين هوكنج**" من يصرح بصدور العالم بنفسه من العدم إلى الوجود؟!.. أليست هذه أكبر خرافة، يعجز الخيال عن تصورها؟!

○ السفسطائي المادي: صحيح ولكن.....

- الفيلسوف: أليست لدينا اتجاهات فكرية مادية في غاية التعصب والتطرف لأفكارها، وغاية الإقصاء لغيرها، كبعض جماعات اليمين الليبرالي المتطرف في الغرب، أو بعض جماعات اليسار الشيوعي في الشرق، بالإضافة إلى الجماعات الفاشية، والنازية، والعنصرية، وغيرها....ألم يكن أمثال هتلر، وستالين، وماوتسي تونج من الماديين، في قمة القهر والظلم والاستبداد، وانتهاك حقوق الإنسان.....فهل يمكننا أن نقول أنّ اعتقاد كل هؤلاء بالمنهج العلمي التجريبي هو السبب في أوهامهم، وتعصبهم، وتطرفهم، واستبدادهم؟

○ السفسطائي المادي: لا طبعا لايمكن، هذه اعتقادات وتصرفات لاشأن لها بالمنهج العلمي.

● الفيلسوف: كذلك ياعزيزي هذه الخرافات والتعصبات، والاستبداد، المنسوبة إلى عالم الغيب والميتافيزيقا، لاعلاقة لها بالمنهج العقلي الإنساني، بل هي عند التحليل تتموضع في النقطة المقابلة له تماما.

○ السفسطائي المادي: غريبة !أنا لايمكنني أن اتخيل ذلك...ممكن توضح لي الأمر أكثر.

● الفيلسوف: دعنا نبدأ بالخرافة...ماهي الخرافة؟ الخرافة هي كل اعتقاد يقيني غيبي لايقوم عليه دليل عقلي برهاني، أو يخالف العقل، أو اعتقاد مادي لايقوم عليه دليل علمي تجريبي، أو يخالف العلم.

○ السفسطائي المادي: هل يمكنكم أن تضربوا لي أمثلة على ذلك؟

● الفيلسوف: يعني...على سبيل المثال، إن كنت تعتقد بأن لهذا الكون البديع صانع حكيم، ومهندس خبير، أخرجه من العدم إلى الوجود، وصممه على هذا الوجه المنظّم والمتكامل، فهذا اعتقاد عقلي برهاني، لأن العقل يدرك استحالة أن يخرج الشيء نفسه من العدم إلى الوجود، أو من الفوضى إلى النظام الدقيق والبديع...أمّا إن كان يعتقد بوجود آلهة متعددة تتعارك مع نفسها في السماء، ثم تترل إلى الأرض، وتتمشى في الشوارع، ثم تتعارك مع الناس، وتعتدي عليهم، فيقابلوها بالمثل، فتفر إلى السماء مرة أخرى، كما جاء في أساطير اليونان التي نقلها لنا "هوميروس"، أو مثل من يعتقد بأن الشياطين هي السبب في حصول الزلازل والبراكين، كما يتوهم بعض المتدينين، على خلاف

الأدلة العلمية البرهانية، فهذه كلها خرافات لامحالة.

○ السفسطائي المادي: نعم واضح.

● الفيلسوف: أما التعصب والتطرف، فمنشؤه عدم الموضوعية، والخروج عن حد الاعتدال، فهو مرض نفسي، وليس استدلالا عقليا.

○ السفسطائي المادي: ولكن في رأيي أنّ سببه هو الاعتقاد اليقيني المطلق، حيث يظن الإنسان بأن الحق كله عنده، وأن الاخرين على باطل، وهذا ماتدعونه أنتم أيها الفلاسفة.

● الفيلسوف: أنا معك أنّ الإنسان المتعصب، والمتطرف، يتوهم هكذا، ولكن سؤالي هنا، هو هل أنّ سبب التعصب هو اليقين المطلق في نفسه، أم اليقين غير العقلاني، الحاصل له بالتلقين العرفي، والتقليد الديني الأعمى؟

○ السفسطائي المادي: يمكن أن توضحوا كلامكم أكثر.

● الفيلسوف: إذا كان اليقين العقلي البرهاني الميتافيزيقي، المبتني على المبادئ البديهية الموضوعية الواضحة، هو سبب التعصب والتطرف، لكان كل الفلاسفة العقليين، من أمثال أرسطو، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وديكارت، واسبينوزا، من المتعصبين المتطرفين، مع كونهم من كبار الحكماء المعتدلين، الذين يشار إليهم بالبنان في رجاحة العقل، ورصانة السلوك....فمن هنا نفهم أنّ التعصب والتطرف، إنما هو من شيمة العاجز، الذي يعجز عن

إقناع الاخرين بقوة المنطق، فيلجأ إلى منطق القوة، منطق التكفير والتفجير، كما يفعل الكثير من المنتسبين إلى الأديان، والمذاهب الخرافية.

○ السفسطائي المادي: يعني تقصدون أن سبب التعصب والتطرف هو اليقين غير المبتني على البرهان العقلي، بل على التقليد الأعمي؟

● الفيلسوف: بالضبط...اليقين هو منشأ الراحة والاستقرار، والظنون والشكوك هي منشأ القلق والاضطراب، ولكن بشرط أن يكون يقينا منطقيا عقليا، لايقينا عرفيا، أو شخصيا، أو فئويا، ناشئ من التلقين، والأنس، والاستحسان، كأكثر اليقين الناشئ من التعصبات الشخصية والفئوية، والعرقية والدينية، وكلها يقينيات لاعقلانية....فاليقين العقلي الميتافيزيقي عند الفلاسفة، كاليقين العلمي الفيزيائي الرياضي عند العلماء الفيزيائيين والرياضيين، يقين منشؤه الوضوح والترتيب المنطقي، ومثل هذا اليقين لايمكن بأي حال من الأحوال أن يكون منشأً للتعصب والتطرف، بل هو معيار الوسطية، والموضوعية، والاعتدال.

○ السفسطائي المادي: نعم الفرق أصبح الان واضحا بين اليقين العقلي وغير العقلي، لقد التبس الأمر علي بالفعل.

● الفيلسوف: ومن هنا يتبين لك بوضوح أيضا، أن الاستبداد الديني والسياسي، لاعلاقة له من قريب أو بعيد، بالمعرفة العقلية الميتافيزيقية، وكيف وأن العقل يدعو بنفسه إلى التحرر، والعدالة والمساواة، بل منشأ الاستبداد هو

السلوك الانتهازي، الحاصل من الزواج غير الشرعي بين بعض المؤسسات الدينية الانتهازية، وبعض الأنظمة السياسية الشمولية، حيث تكسب الأولى القدرة من الثانية، وتكتسب الثانية من الأولى الشرعية.

وفي النهاية يتبين لنا أن المعرفة العقلية الميتافيزيقية ليست منشأ الخرافة والتعصب والاستبداد، بل منشأ العلم، والاعتدال، والعدالة والحرية.

○ العاقل: أنا أشكركم من كل قلبي، بعد أن حررتم ذهني من النظرة المادية الضيقة..الان اتضحت لي الأمور بكل شفافية، وأصبحت أنظر إلى الأمور بنحو أوسع، واكثر واقعية، وأيقنت أن المنهج العقلي الميتافيزيقي هو الأب الروحي للمنهج العلمي الفيزيائي الرياضي، ولايستغنى أحدهما عن الاخر، وكل واحد منهما يكمل الاخرين، فليضع الفلاسفة والعلماء اياديهم في أيدي بعضهم البعض، من أجل النهوض بالإنسانية، ومكافحة الخرافة والتعصب، والاستبداد، والأفكار الرجعية، وتحقيق التقدم والتحرر، والعدالة الاجتماعية.

المشهد الثالث

حوار مع السفسطائي الديني

الفصل الأول

○ السفسطائي الديني: في الواقع لقد ترددت كثيرا عندما طلبت مني موعدا للقاء والحوار، ولولا القرابة والنسب الذي بيننا ماقبلت هذه الدعوة.

● الفيلسوف: ولماذا هذا الموقف العدائي، وهل صدر مني شيء أساء إليك أو جرح مشاعرك؟!

○ السفسطائي الديني: مشكلتي معك ليست شخصية، وإنما فكرية عقائدية، نحن نختلف جذريا في طريقة التفكير، والرؤية والسلوك.

● الفيلسوف: وهل مجرد الاختلاف الفكري يدعوا إلى المنازعة والمقاطعة، ألا يجمعنا أنا وأنت مشتركات أخرى، حتى ولو لم يكن بيننا قرابة أو نسب، ألسنا إخوة في الإنسانية؟

○ السفسطائي الديني: لا لا لسنا إخوة، إنما الأخوّة في الدين والإيمان، كما أنني لا اعتبر الفيلسوف إنسانا في الحقيقة، لأنه لادين له.

● الفيلسوف: هذا رأي عجيب وغريب حقاً!... وماهو الذي دعاك لكي تسلب الإنسانية عن الفيلسوف؟!

○ السفسطائي الديني: هناك أسباب كثيرة، من الممكن إذا أردت أن

أشرحها لك بكل صراحة، فأنا لا أخشى في الله لومة لائم.

● الفيلسوف: خذ راحتك وقل كل مافي قلبك... فأنا أحب الصراحة والشفافية، حتى نتمكن من أن نحرر محل التراع بيننا...تفضل فأنا أذن صاغية.

○ السفسطائي الديني: أولا من الواضح أن الفيلسوف لايعتمد إلا على عقله الضعيف والمحدود لمعرفة الواقع، فيضله عن سبيل الله.

● الفيلسوف: يعني سبب ضلالة الفيلسوف في رأيك هو اعتماده على عقله؟!

○ السفسطائي الديني: بالتأكيد...فعقل الإنسان عاجز بنفسه عن معرفة الله، وعن هداية الإنسان والنظر إلى عالم الغيب والملكوت، لأنّ الله هو الهادي لاالعقل، فاتباع الفيلسوف لرأيه الشخصي، هو اتباع للهوى، فالفيلسوف يجعل الحاكمية للعقل، لا للنص الديني.

● الفيلسوف: هذه هي نظرتك إلى العقل؟! على أي حال هذا رأيك.. وأنا لا أريد أن أردّ عليك الان.

○ السفسطائي الديني: هذا ليس فقط رأيي، بل اعتقاد جميع المؤمنين من أهل الحق والدين.

● الفيلسوف: مفيش مشكلة.. كمل كلامك.

○ السفسطائي الديني: ثانيا الفيلسوف لايحمل هم الدفاع عن الدين، ولا يعبأ بتفسير النصوص الدينية، وكأنه أمر لايعنيه من قريب أو من بعيد.

● الفيلسوف: نعم صحيح...وماذا أيضا؟

○ السفسطائي الديني: الفيلسوف يسلك مسلكا في التفكير يخالف مسالك الأنبياء والسلف الصالح من المؤمنين، مسلك الابتداع، لا الاتباع، فهو يستبد برأيه، ولايستفيد من غيره.

● الفيلسوف: يعني التفكير المستقل، والخلاقية أنت تسميه بدعة، وتجعل التبعية والتقليد الأعمى كمالا حقيقياً للإنسان؟

○ السفسطائي الديني: أي استقلال وخلاقية تتحدث عنها! إنما الكمال في العبودية لله، والتأسي بالأنبياء والصالحين، لا في اتباع الهوى.

● الفيلسوف: على أي حال أنا لاأريد أن أناقشك أو اقطع حديثك الان... على كل حال كمل كلامك للنهاية.

○ السفسطائي الديني: الفيلسوف يتبنى عقائد وآراء شنيعة وباطلة، يخالف بها عقائد الأنبياء والمؤمنين، وتضاد ظواهر النصوص الدينية، الأمر الذي يستلزم الخروج من الدين بالكلية.

● الفيلسوف: تمام....وهل بقى عندك شيء اخر تريد أن تطرحه.

○ السفسطائي الديني: سبحان الله ! ألا يكفيك كل هذه الأسباب والأدلة الساطعة على ضلالة الفيلسوف، وخروجه عن حد الإنسانية، فالفيلسوف زنديق في الواقع، وقد استنكف واستكبر على طريق الحق، وصراط العبودية، واتبع خطوات الشيطان.

● الفيلسوف: لم أكن أظنك يوما أنك حانق على الفلاسفة إلى هذه الدرجة الشنيعة، وكان أولى لك أن تتريث في أحكامك على الاخرين، لأنّ هذا هو التطرف بعينه، ومن الممكن أن يسبب لك مشاكل خطيرة في المستقبل.

○ السفسطائي الديني: أنا لاأبالي أن تصفني بالتطرف أوالإفراط، لأنّ هذه هي سيرتكم دائما مع المؤمنين على مر التاريخ، فتصفونهم تارة بالتطرف، واخرى بالتخلف والرجعية...وأنا والحمد لله على بصيرة من أمري، ولكم أن تراجعوا كتاب((تهافت الفلاسفة)) لشيخ الإسلام "أبو حامدالغزالي"، والذي كفّر فيه الفلاسفة بالدلائل الساطعة والحجج البينة، حتى تعرف أنّ هذا ليس رأيي وحدي.

● الفيلسوف: أنا لاشأن لي بالاخرين، هذا رأيهم، وأنا أريد أن أتحاور معك أنت كإنسان.

○ السفسطائي الديني: لاتنس أنك أنت الذي طلبت الحوار، فعليك أن تتحمل تبعاته.

● الفيلسوف: بكل تأكيد...ولكن للحوار أصول وآداب ليكون بنّاءً ومثمراً، وأهم هذه الآداب هو عدم الانفعال، أو التعصب، واجتناب المهاترات اللفظية، لأنّ الحوار ليس مصارعة حرة.

○ السفسطائي الديني: ماذا تقصد من كلامك هذا؟

● الفيلسوف: أقصد أنّ هدف الحوار الإنساني ينبغي أن يكون طلب

الحقيقة، ومعرفة الواقع، لاالغلبة أو التشفي والانتقام.

○ السفسطائي الديني: اتفق معك في هذا....ولكني أراك كأنك تصف المتدينين بأنهم متعصبون، وأنهم ليسوا طلاب حقيقة، أو أنهم لايبحثون عن المعرفة الواقعية كما تسمونها، أو بعبارة الأخرى ـ وكما يزعم الزنادقة ـ ليس عند المؤمنين إلا الخرافات وأساطير الأولين...وهذا أمر باطل ومرفوض.

● الفيلسوف: ليس من شأن الإنسان العاقل أن يعمم أحكام البعض على الكل، لأنه ليس سلوكا منطقيا، فكل طائفة من الناس فيها الخير وفيها الشر، وفيها الكمال، وفيها النقص....ولكن كل الذي أردت أن اقوله لك، هو أنّ للحوار البنّاء مبادئ وأصول، ينبغي مراعاتها ليكون مثمراً وبنّاءً، وإلا لأصبح عقيما، وتحول إلى مجرد ثرثرة ومهاترات.

○ السفسطائي الديني: أنا أول مرة أسمع هذا الكلام...ماهي هذه المبادئ والأصول... ربما منكم نستفيد.

● الفيلسوف: أولا خلوص النية لمعرفة الواقع.

○ السفسطائي الديني: هذه النية موجودة بحمد الله تعالى.

● الفيلسوف: ثانيا الموضوعية، بمعنى النظر إلى الموضوع في نفسه، وعدم التعصب، بل التجرد لمعرفة الحقيقة في نفسها، دون أي ضغوطات نفسية أو مذهبية.

○ السفسطائي الديني: هذا الشرط يبدوا لي صعبا جدا، لأنه لايوجد إنسان يمكن أن يدخل في حوار، وهو بلا اعتقاد مسبق.

● الفيلسوف: ينبغي أن تتجرد عن اعتقادك أثناء الحوار.

○ السفسطائي الديني: استغفر الله العظيم... يعني تريدني أن أخرج عن ديني لأتحاور معك؟!!

● الفيلسوف: أنا لاأقصد هذا بالطبع، بل أقصد أن تُعرض عنه، ولو مؤقتا، ولاتنظر إليه، ولاتجعله نصب عينيك أثناء الحوار؛ لأنه في هذه الحالة يمنعك من أن تنظر إلى غيره، حتى لو كان هذا الغير هو الحق والصواب، وهذا ينافي الموضوعية والحياد...هذا إذا أردت أن تحكم بالعدل والإنصاف.

○ السفسطائي الديني: ممكن توضح كلامك أكثر؟

● الفيلسوف: إذا أردت أن تنتقد شيئا، فينبغي أن تجعل بينك وبينه مسافة؛ لتراه جيدا، كالكتاب...فإنه إن كان ملتصقا بوجهك لايمكنك أن تقرأه جيدا.

○ السفسطائي الديني: الأمر مازال صعبا بالنسبة لي، وكلامك حول هذا الشرط غير مريح، وأخشى أنك تريد أن تستدرجني وتضللني، كما تفعلون مع الاخرين، وهذه أول مرة أسمع هذاالكلام، ولطالما تحاورت مع الاخرين، ولم يشترطوا علي مثل هذا الشرط.

- الفيلسوف: ماكنت تفعله مع الاخرين لم يكن حوارا، بل كان جدالا ومراء، وأنا أريد أن أحاورك، لا أن أجادلك.

على أي حال...هناك شروط أخرى للحوار البنّاء، ولكن لنتركها لفرصة أخرى، حتى تستوعب ماقلته لك جيدا.

الفصل الثاني

○ السفسطائي الديني: كنا نتحدث في الجلسة الأولى عما سميتموه بقواعد الحوار البنّاء، ولفت نظري كلامكم عن الموضوعية، والتي فهمت منها الحيادية عن أي اعتقاد مسبق، وقد فكرت كثيرا طوال الأسبوع في هذا الشرط، فلم أجد أحد يلتزم به في أي حوار فكري، مما يدل على استحالة تحققه، لاستحالة تجرد الإنسان عن اعتقاده المسبق أثناء الحوار، لأنه يتنافى مع أضعف مراتب الإيمان، فضلا عن أقواها وأشدها كما هو الحال عند المؤمنين الحقيقيين الصادقين.

● الفيلسوف: أنا اتفق معك في صعوبة الأمر، وهذه الصعوبة في الواقع ليست مختصة بالمتدينين، بل بكل أصحاب الاتجاهات الفكرية سواء اليمينية منها أو اليسارية، فكل إنسان بطبيعة الحال يعتز باعتقاده، ويدافع عنه، ويسعى دائما لتصديق مايحب أن يصدقه، وهذا خلاف الموضوعية، بل خلاف الإنصاف، ومثل هكذا إنسان لايمكن أن يكون طالبا للحقيقة والواقع...ولكن الأمر أسوء حالا بالنسبة لأصحاب الاعتقادات الدينية.

○ السفسطائي الديني: لا لا على كيفك شوية...إحنا بدأنا بالهجوم ولا إيه؟!

● الفيلسوف: لا أبدا ياأخي العزيزليس هناك أي نية للهجوم، فأنا لست مجادلا بل محاورا وباحثا عن الحقيقة، وأنا أحبك واحترمك كإنسان، وإن كنت لاتبادلني نفس الشعور.

○ السفسطائي الديني: إذن لماذا جعلت المتدين أسوء حالا من غيره؟

● الفيلسوف: أنا لم أقصد شخص المتدين، ولكن طبيعة الاعتقاد الديني طبيعة مقدسة في نظر صاحبها، وغالبا مايتوهم الكثير منهم أنها هي عين مايريده الله ورسوله، الأمر الذي يضفي عليها القدسية عندهم، وبالتالي يكونون أكثر تعصبا وحساسية من غيرهم، ويجعلهم يرون كل من يخالفهم في حكم الكفار أو المرتدين، بل يسلبون عنهم الإنسانية كما فعلت أنت مع الفلاسفة... وأما أصحاب الاتجاهات الفكرية غير الدينية، فهم وإن كانوا متعصبين أيضا لآرائهم، ولكن في نفس الوقت لايرونها مقدسة، ولايكفرون من يخالفهم، بل فقط يخطئونهم، أو يعتبرونهم منحرفين فكريا لاغير.

○ السفسطائي الديني: على أي حال هذا هو مقتضى التدين والإيمان بالله، وهذا هو التعصب المقدس...وكيف يمكن أن يكون حال الإيمان بالله ورسله، كحال الإيمان بكارل ماركس وجون لوك، وكيف تساوي بين الخارج عن الدين، وبين الخارج عن الشيوعية أو الليبرالية.

● الفيلسوف: إذن أنت تؤيد كلامي، وما أردت إلا توصيف حال المتدين المتعصب، وأنت تسميه بالتعصب المقدس، وهذا مايجعله أبعد عن الموضوعية.

○ السفسطائي الديني: ولكنكم أنتم أيها الفلاسفة متعصبون أيضاً لآرائكم الفلسفية، فكيف تزعمون الموضوعية....هذا مجرد شعار.

● الفيلسوف: نحن لسنا متعصبين، لأننا ربينا أنفسنا منذ البداية بالتربية العقلية، حيث بدأنا من نقطة الصفر والشك المطلق، واعتمدنا المنهج العقلي البرهاني كطريق وحيد لكشف الواقع، وجعلنا هدفنا الوحيد هو الوصول إلى الواقع في نفسه مهما كلف الأمر، وعودنا أنفسنا على أن نستدل أولا ثم نعتقد، لا أن نعتقد أولا ثم نستدل كما يفعل غيرنا.

○ السفسطائي الديني: ولكن في النهاية لديكم اعتقادات وتحبون أن تكون صادقة، وهذا يجعلكم كغيركم، ويفقدكم الموضوعية.

● الفيلسوف: نحن لانحب إلا الواقع، ولاشيء غيره، فنبحث عنه، ونحب أن نكون واقعيين لاغير، وإذا تبيّن لنا أن اعتقادنا خلاف الواقع، فلن نتردد لحظه واحدة عن العدول عنه، والتسليم بالواقع، مهما كانت النتائج، وهذه هي الموضوعية.

○ السفسطائي الديني: هذا مجرد إدعاء... فهل يمكن أن توضحوا كلامكم أكثر.

● الفيلسوف: هناك نوعان من الطرق لتكوين الاعتقاد، طرق عقلية علمية منطقية تبحث عن الأسباب الذاتية للأشياء، كالبراهين العقلية المحضة المبتنية على مبادئ فطرية بديهية واضحة عند العقل كالتي يعتمدها الفلاسفة،

وكالتجربة العلمية الحسية التي يعتمدها علماء الفيزياء والأحياء والطب، أو كالبراهين الرياضية التحليلية التي يعتمده المهندسون والرياضيون..وهناك في المقابل طرق أخرى غير علمية يعتمدها أكثر الناس في بناء آرائهم واعتقاداتهم، كالاعتماد على التقليد العرفي، أو التلقين الديني، أو الاستحسان الشخصي الذوقي، أو المنهج البراجماتي المصلحجي، وكل هذه الطرق غير العلمية لايمكن أن تضمن لك المعرفة الواقعية أبدا.

○ السفسطائي الديني: يعني أنت تريد أن تتهمني وتتهم المتدينين، بأنّ اعتقاداتهم تلقينية غير علمية، وبالتالي غير واقعية، وهل هذا إلا الكفر والضلال.

● الفيلسوف: أنظر كيف تنفعل، وتكفّر من يخالفك بكل بساطة...أنا لا أريد ان أتهم أحد بعينه، ولا أميل إلى تعميم الأحكام كما أخبرتك قبل ذلك، وأما أنك كيف حصّلت اعتقادك، فهذا ماسيتبين من خلال الحوار.

○ السفسطائي الديني: لابأس... ولنصبرنّ على ماآذيتمونا... إنّ الله مع الصابرين... ولكن قل لي ماعلاقة ماذكرتموه بالموضوعية التي تدعونها؟

● الفيلسوف: لأنّ من حصّل اعتقاده بنحو فلسفي أو علمي، فسيكون اعتقاده راسخا، وناشئاً من أسبابه الذاتية المتعلقة بنفس الموضوع، لا ناشئة من الأنس والعادة والمصلحة، وبالتالي لن تكون هناك ضغوطات نفسية أوعرفية، مذهبية أو مصلحة شخصية أو فئوية تدعوه إلى التعصب الأعمى لاعتقاده، كما هو الحال في الطرق غير العلمية.

○ السفسطائي الديني: يعني هذا هو السبب في نظركم؟

● الفيلسوف: بالتأكيد...ولذلك تجد أنّ حوارات الفلاسفة، والأطباء والمهندسين فيما بينهم غالبا ماتكون محترمة ومثمرة، على خلاف حوارات أصحاب العقائد الدينية والاتجاهات الفكرية الاجتماعية والسياسية التي غالبا ماتكون عقيمة، ومحفوفة بالمهاترات، والشجارات.

○ السفسطائي الديني: هذا أمر طبيعي، لأنّ موضوعات الفلاسفة والأطباء والمهندسين غير مقدسة، وليست فيها مصالح اجتماعية أو سياسية.

● الفيلسوف: وهكذا ينبغي أن تكون حواراتنا الدينية والفكرية يا سيد يامحترم.

○ السفسطائي الديني: يعني كحوارات الأطباء والمهندسين...هذا محال.

● الفيلسوف: إذا كان محالا، فلامعنى لأن يكون هناك حوار إنساني متمدن وبنّاء، وستظل حوارتنا الفكرية عقيمة، وغير محترمة، وليست إلا مجرد ثرثرة فارغة.

الفصل الثالث

○ السفسطائي الديني: ادعيتم في جلستنا الأخيرة أنّ حوارتنا الفكرية ينبغي أن تكون علمية كحوارات الأطباء والمهندسين، وقد أجبتكم باستحالة ذلك، بسبب اختلاف طبيعة الموضوعات، حيث إنّ موضوعات الأطباء والمهندسين ملموسة وواضحة، بالإضافة إلى كونها غير عزيزة أو مقدسة، وكل هذه الصفات غير متوفرة في موضوعاتنا الفكرية أو الدينية.

● الفيلسوف: أنا أتفق معكم تماماً في هذا التحليل في التفرقة بين الموضوعات، ولكن لست معكم، في النتيجة التي توصلتم إليها؛ لانّ سلب الموضوعية العلمية عن حواراتنا الفكرية، إنما هو حكم بالفشل عليها مسبقا، الأمر الذي أدى إلى عقمها، وعدم جدوائيتها... وهل تدري أنّ رأيك هذا هو نفس رأي خصومك من أصحاب الاتجاه المادي اللاديني.

○ السفسطائي الديني: أعوذ بالله...الله يسامحك..أتشبهني بأعداء الدين.

● الفيلسوف: على الرغم من الاختلاف الشديد بينكما في طريقة التفكير، والرؤية والاعتقاد، إلا أنكما تقفان على أرضية واحدة في التنكر للعقل الإنساني التجريدي، ورفض إعماله في القضايا الفكرية الإنسانية، ولكنكما افترقتما بعد ذلك في انتخاب البديل عن العقل الإنساني، فاكتفيتم أنتم

بالطريقة النقلية التعبدية للنصوص الدينية في بناء رؤيتكم عن الحياة، واكتفوا هم بالطريقة الحسية الاستقرائية التجريبية، وسموها بالمنهج العلمي، وحصروا المعرفة الموضوعية الواقعية فيها، وسموا طريقتهم هذه بالعقلانية، وجعلوا القضايا الفلسفية والدينية في خانة الآراء الذوقية النسبية المتغيرة.

○ السفسطائي الديني: هذه مفارقة عجيبة غريبة بالفعل.

● الفيلسوف: نعم...غاية الأمر أنكم قد جعلتم عقولكم في أسماعكم، وقلتم سمعنا وأطعنا، وهم قد جعلواعقولهم في أعينهم، وقالوا شهدنا وصدّقنا...وتجد أنّ نفس المحاولات النقدية للعقل الإنساني، والشبهات التي أثارها في الماضي أمثال ابن تيمية وغيره من الحنابلة على المنطق العقلي البرهاني هي نفسها المحاولات التي قام بها، وأثارها جون لوك، ودافيد هيوم، وعمانوئيل كانط، وبرتراند رسل، والوضعيون في الغرب الحديث.

○ السفسطائي الديني: حتى لو سلمت بكلامك، فهذا لايعني بأي حال من الأحوال، أن تساوينا معهم، فهذه إهانة مرفوضة، فنحن بحمد الله قد اتبعنا الحق من ربنا، وهم قد اتبعوا الباطل بأهوائهم.

● الفيلسوف: هذا مجرد رأيك الذي اخترته لنفسك، وهم في نفس الوقت يرون العكس تماما.

○ السفسطائي الديني: ماذا؟؟!! يعني أنت تساوي بين أهل الحق، وأهل الباطل، وترى مثلهم أنّ الحق أمر نسبي متغير؟!

● الفيلسوف: أنا لا اعتقد أصلا بالنسبية المطلقة، وإلا لم أكن فيلسوفا باحثا عن الحقيقة، ولكن عليك أن تهدئ من روعك قليلا، ولاتنفعل وتتعصب، ولا تتعجل في أحكامك، وإلا وصلنا في الحوارإلى طريق مسدود، وأنا لم أتهمك بشيء إلى الان، بل كنت في مقام توصيف واقع موجود، أنت لاتنكره، وقد اعترفت منذ البداية بمعاداتك للعقل، وسفهت الفلاسفة، واتهمتهم بالكفر والزندقة.

○ السفسطائي الديني: لابأس... لك هذا... سأسعى إلى ذلك إن شاء الله، والله المستعان على ماتقولون.

● الفيلسوف: دعني أسألك الان...بعد أن أقصيت عقلك الإنساني الفلسفي، مامعنى أنك على حق، وكيف عرفت أنك على حق؟

○ السفسطائي الديني: أممم...الحق...الحق هو ماقاله الله ورسوله، وانا اتبع بفضل الله مايقولانه، فأنا على الحق.

● الفيلسوف: إذا كان الحق كذلك...فكيف عرفت أولا أنّ لهذا الكون مبدأ إلهي عليم حكيم، ومصمم قدير،وأنه قد أرسل الأنبياء والمرسلين، وانزل عليهم الكتب المقدسة، وأوجب على عباده طاعتهم.

○ السفسطائي الديني: عرفت هذا بفطرتي وقلبي.

● الفيلسوف: مامعنى معرفتك الفطرية أو القلبية، هل هي مجرد شعورك الوجداني بهذا.

○ السفسطائي الديني: بالتأكيد...وقلبي مطمئن بالإيمان، بأنّ هناك إله عظيم خلق هذا الكون، وبعث أنبياءه لهداية الناس، مبشرين ومنذرين بيوم البعث والقيامة.

● الفيلسوف: أنا لاأناقشك في نفس شعورك، ولكن في أنه كيف ربطت بين شعورك الوجداني هذا، وبين كون هذا الشعور مطابقاً للواقع، ألا تحتمل أن يكون هذا الشعور مجرد تلقين تم زرعه في نفسك منذ الصغر، من البيئة التي نشأت وترعرعت فيها، ثم ألِفته، واستأنست به.

ألا تعلم أنّ هناك الكثير من الناس، الذين تربوا ونشؤوا في بيئة غير بيئتك، ليس لديهم هذا الشعور الباطني، بل وحتى بعضهم لديهم شعورا مضادا لشعورك، ويقيناً مخالفاً ليقينك.

○ السفسطائي الديني: إذن فأنا أحمد الله تعالى أنني قد ولدت في بيئة مؤمنة صالحة، ولم أولد في بيئة كافرة فاسدة.

● الفيلسوف: وهل هذا جواب منطقي؟ هذا مجرد شعار وإدعاء، ومصادرة على المطلوب، وأنت لم تجبني على سؤالي...ارجوك توجه إلي ما أقوله لك جيدا، وأنصت إلى كلامي بموضوعية، ولو بالحد الأدنى كما وعدتني...أنا سألتك كيف عرفت أن شعورك ويقينك الوجداني مطابق للواقع، وليس أمرا موهوماً مأنوسا؟... ولم لايكون شعور الاخرين ويقينهم الوجداني صحيحا، وكيف حكمت على بيئتك بأنها صالحة، وبيئتهم فاسدة....هذا أول الكلام.

○ السفسطائي الديني: أنا لاأستطيع أن أفهمك... لاأستطيع أن أفهمك.

● الفيلسوف: بل تفهمني جيدا، وكلامي في غاية الوضوح، ولكنك لاتريد أن تفهمني في الواقع؛ لأنه ليس لديك جواب...وعلى أي حال دعني أُسلِّم معك صحة ما تقوله وتدعيه من الرؤية الدينية، ولكن كيف عرفت أن دينك هذا الذي ترتضيه، هو الدين الصحيح من بين الأديان المتعددة؟

○ السفسطائي الديني: ماذا تقصد بكلامك هذا؟

● الفيلسوف: أنت تعرف جيدا، أنّ هناك العشرات من الأديان المتخالفة، والمتقابلة، التي يدعي أصحابها بأنها هي الصحيحة، وفي داخل كل دين هناك العشرات من المذاهب الدينية المتعددة، ولكل مذهب من المذاهب الدينية عشرات القراءات المتباينة، وكل فرقة تدعي أنها على الحق المبين، وغيرها على باطل.

○ السفسطائي الديني: نعم صحيح، والنصوص الدينية أكدت على هذا التشتت، والفُرقة، ولكن هناك فرقة واحدة ناجية، وهم أهل الحق.

● الفيلسوف: وكيف عرفت هذا، وكيف علمت أنك من هذه الفرقة الناجية، أنت مازلت تفكر تفكيرا نصيا تعبديا، ولاتريد ان تراجع عقلك، بل مازلت تجتر من ذاكرتك الدينية التي ملؤوا بها رأسك، مع أنّ كلامنا يدور من أصله عن مرحلة ماقبل النصوص الدينية، مرحلة إثبات أصل المبدأ الإلهي، وأصل النبوة، والحاجة إلى الدين، وأنا لم اسمع منك سوى شعارات وإدعاءات، يدّعيها غيرك من أصحاب الأديان والمذاهب الدينية الأخرى.

○ السفسطائي الديني: أرجوك... لاتكلمني بهذا الأسلوب لو سمحت... وأنا لم اتعود على هذا النحو من التفكير العقلاني ـ كما تسميه ـ لأنه يزعزع أصول اعتقادي وإيماني، وأنت تطالبني أن أبدأ من نقطة الصفر.

● الفيلسوف: إذا قبلت لنفسك الاعتقاد غير العقلي المبني على الإيمان بالعقائد العرفية التلقينية المأنوسة، التي تلقيتها من بيئتك التي اتفق وأن نشأت فيها، فاقبل ذلك لغيرك أيضاً، ولاتتهمهم بالكفر والضلال، لأنهم لم يخالفوا الحق في الواقع، بل خالفوا اعتقاداتك العرفية، وآراء مشايخك وكبرائك، واتبعوا أعرافهم وكبرائهم...

على أي حال..أنا لاأريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك، واتركك لعقلك وضميرك؛ لتفكر على مهلك، ولتراجع حساباتك من جديد، إلى أن نلتقي مرة أخرى إن شاء الله.

الفصل الرابع

○ السفسطائي الديني: في الواقع منذ أن تركتني في الجلسة الأخيرة، وأنا لم أستطع أن أنام طوال الليل، ولم أعد أشتهي الطعام، بل أكثر من ذلك، فإنني في أحد الليالي، قررت بيني وبين نفسي أن أقطع الحوار معك، وأن أقاطعك بالكلية، ولكن مع كل هذا لم أستطع، أن أمنع نفسي للعودة مرة أخرى للحوار معك.

● الفيلسوف: سبحان الله...وماهو السبب ياترى؟ هل أسأت إليك في الكلام.

○ السفسطائي الديني: لا بالعكس، وهذا مايثير تعجبي ويقلقني، فالحوار معك يختلف عن الحوار مع الاخرين، حيث دائما ماكنت أتعارك معهم أثناء الحوار، ونتبادل الاتهامات والشتائم، ولكن مع ذلك لم يكن يصيبني مثل هذا القلق، ولم أكن أشعر بالألم النفسي كما أشعر به الان معكم، بالرغم من أنكم تتحاورون معي بكل أدب وهدوء، ولا أدري ماالسبب؟

● الفيلسوف: السبب في نظري، هو أنني قد حركت عقلك النائم، فبدأ يصحو ويستيقظ من نومه العميق، بل من غيبوبته الطويلة.

○ السفسطائي الديني: لاأدري...ربما...، ولكن ماأشعر به بالفعل، هو صراع كبير يدور في نفسي، ولا أدري بالضبط ماهو منشؤه؟!...وأنا لاأُخفي

عنك أنني أشعر تجاهك بشعور مزدوج، فأنا مع كوني معجبا بأخلاقك وأسلوبك في الحوار، إلا أنني أشعر في نفس الوقت بكراهية، واستياء شديد تجاهكم عندما أراكم تسعون للتشكيك في أعز شيء عندي، وهو ديني وإيماني.

● الفيلسوف: وأنا من ناحيتي أتفهم جيدا مشاعركم، وأُقدّرها، ولكن من قال لك أنني أريد أن أزعزع دينك وإيمانك، فأنا لم أقصد إلا الحوار العقلي الموضوعي، ولم أقصد أصلا مجادلتك، أو إبطال اعتقاداتك، فهذا ليس من شأن الحكيم كما تعرف، كما أنّ هذا أمر أنت الذي تقرره، وليس أنا.

○ السفسطائي الديني: في الحقيقة عندما راجعت كلامك مع نفسي، وحللت استسفاراتك حول معنى الحق، والاعتقاد الصحيح، وكيفية تحصيله، وجدت نفسي عاجزا عن الجواب المنطقي، واكتشفت أنّ طريقة تحصيلي لاعتقاداتي الدينية ـ على الرغم من إيماني ويقيني بها ـ إلا أنها لاتختلف أصلا عن طريقة الآخرين، من أصحاب الديانات الأخرى، فنحن جميعا تبنينا اعتقادات تلقيناها من بيئتنا التي نشأنا وتربينا فيها، ومن آراء مشايخنا وكبرائنا الذين نثق فيهم، بحيث لو فرضتُ أنني قد ولدت، ونشأت في بيئتهم، لاعتنقت نفس عقائدهم!.

● الفيلسوف: وهذا ماأردتُ أن ألفت نظرك إليه، حيث إنّ أكثر الناس يغفلون عن هذه الحقيقة الواضحة، فلايشعرون بشعور الاخرين، ولا يراعون ظروفهم الاجتماعية التي نشؤا فيها.

○ السفسطائي الديني: فإذا كان الأمر هكذا، فكيف أطمئن من صحة اعتقادي وإيماني، وهو محض وليد الصدفة، والظروف الزمانية والمكانية، وكيف يمكنني أن أحكم على عقائد الاخرين بالبطلان، مع كوني لااتميز عنهم، إلا بالبيئة التي ولدت فيها، والمحيط الذي اتفق أن نشأت فيه، فكل واحد منا قد ورث عقائد بيئته، وما أعجبه واطمئن به قلبه من آراء من يثق فيهم، ويطمئن إليهم.

● الفيلسوف: لقد استيقظ ضميرك، وارتفع صوت العقل فيك، وهذا ماكنت أصبو إليه، وأتمناه.

○ السفسطائي الديني: ولكنك قد ورطتني، وأوقعتني في مأزق نفسي كبير لاأعرف كيف أخرج منه.

● الفيلسوف: وماهو هذا المأزق؟!، هل عودة العقل، وتحكيمه في نفسك، تعتبره مأزق، وورطة؟!

○ السفسطائي الديني: أنت تعلم جيدا ماأقصده...فأنا إنسان مؤمن ومتدين، ولا أستطيع أن أتخلي عن ديني وإيماني بهذه السهولة والبساطة التي تتخيلها.

● الفيلسوف: أولا أنا لم اطلب منك أن تتخلي عن دينك وإيمانك، ولا أدعي أنّ تغييرك لفكرك ورؤيتك للحياة أمر سهل، كل الذي أطلبه منك فقط هو أن تكون موضوعيا، ومنصفا للآخرين، وأن تتجرد عن التعصب والانفعال، وإلا فإنك في النهاية لن تضر إلا نفسك، ومجتمعك.

○ السفسطائي الديني: هذه الموضوعية التي تطلبها مني، هي التي ستخرجني عن ديني، واعتقادي، لأنها تتنافى بالكلية مع قدسية الاعتقاد الذي أؤمن به، وأدافع عنه بكل ماأملك.

● الفيلسوف: وكيف تقدس اعتقادا، أنت اعترفت بنفسك الان أنك قد ورثته بمحض الصدفة، ولم يكن لك عليه أي دليل عقلي أو علمي، سوى ماادعيته من اليقين والاستئناس، وكلام الناس من حولك.

○ السفسطائي الديني: وهذا هو مايؤلمني ويعذبني...وكم أتمنى الان أن أعود إلى حالتي الإيمانية الأولى، لأنها الأفضل من جهة الراحة والاستقرار، ولكن لاأدري كيف؟! ليتني لم أعرفك، ولم ألقاك.

● الفيلسوف: هذا كلام غريب منك جدا... فكيف بعد أن عاد إليك عقلك، وإنسانيتك، تود أن تعود مرة أخرى، لتكون مجرد وعاء يصب فيه الاخرون آراءهم، ويلقنوك عقائدهم، لتصبح مجرد بوق لهم تردد مايقولونه كالببغاء، أين الحرية والكرامة الإنسانية؟

○ السفسطائي الديني: أرجوك لاتزيد في جرحي أكثر من ذلك.

● الفيلسوف: لابأس...هدئ من روعك...فإن ماتشعر به الان من صراع هو أمر صحي، وطبيعي جدا، ولكن المهم ألا تستسلم له، وألا تتعجل في اتخاذ قرار غير صائب، ربما يكلفك الكثير، وأنا من جانبي لن اتركك لوحدك، وسأسعى أن آخذ بيدك للخروج من هذا الصراع، ومساعدتك للوصول إلى بر الأمان...ولكن

بشرط أن تساعدني، وتتعاون معي، لأنني لن أجبرك على تبني شيء تكرهه.

○ السفسطائي الديني: أعدك بأنني سأحاول... ولكن ماذا تقصد من كلامك هذا؟

● الفيلسوف: سؤالي هو: أليس اعتقاد الإنسان، ورؤيته للحياة، تؤثر على سلوكه، ومصيره فيها.

○ السفسطائي الديني: بالتأكيد.

● الفيلسوف: إذا كان الأمر كذلك، فإذا كان اعتقادك، ورؤيتك للحياة خطأ فسيكون مسيرك في الحياة خطأ، وربما يؤدي بك إلى الشقاء.

○ السفسطائي: بلا شك

● الفيلسوف: إذن فمعرفتك بخطأ اعتقادك، ثم تصحيحك إياه، مع كونه أمرا صعبا، ومؤلما لنفسك، فهو أفضل لك بكثير من أن تعيش في الأوهام، والحرمان من الحياة االواقعية، والندم بعد ذلك، حيث لاينفع الندم.

○ السفسطائي الديني: نعم صحيح... ولكن ماالذي يمكنني أن أفعله الان.

● الفيلسوف: أن تلتزم بالموضوعية، وأن تنصت لكلامي جيدا بعيدا عن الانفعال.

○ السفسطائي الديني: أنا قررت الاستمرار في الحوار معك على الرغم من الألم الذي يعتصرني، لأنه أصبح من الواضح عندي، ضرورة المواجهة مع نفسي، وخوض هذا الصراع المصيري مهما كلفني الأمر.

الفصل الخامس

● الفيلسوف: أرجو أن يكون مزاجك الليلة أفضل من التي قبلها، وأن يكون وضعك النفسي قد استقر؛ لكي نتمكن من أن نتحاور بموضوعية.

○ السفسطائي الديني: لاأستطيع أن أقول لك أنّ الصراع النفسي في داخلي قد توقف، ولكنه أفضل بحمد الله، وتحت السيطرة، والمهم أنني أستطيع الليلة أن أنصت إليكم بنحو أفضل.

● الفيلسوف: وهذا هو المطلوب، وإن كنت أعلم أنّ الموضوعية من أصعب الأمور على قلب الإنسان، ولكن الإنسان العاقل، كما أنه يكون على استعداد لإجراء أي عملية جراحية في جسمه لإنقاذ حياته، فهو مستعد أيضا لإجراء عملية جراحية في عقله؛ لإنقاذ مصيره وحياته الإنسانية.

○ السفسطائي الديني: هذا كلام كبيروخطير... نسأل الله الثبات والتسديد... والان دعنا ندخل في الموضوع، ولتكن البداية من السؤال الذي زلزل مشاعري، ووقع على رأسي كالماء البارد، وهو "**مامعنى الحق، وكيف نعرفه؟** "فهذا السؤال لم يخطر على بالي طوال حياتي، مع أنني كنت دائما أدعي أنني على الحق، وكذلك يدعي الاخرون!

● الفيلسوف: نعم صحيح...فهذه مشكلة عامة في الواقع... وهي من

المسائل المعرفية التي مازالت مطروحة بقوة في الغرب، ولم يجدوا لها إلى الان جوابا تاما، أومقنعا... ولو سأل كل إنسان نفسه هذا السؤال من البداية، ماحصلت كل هذه المشاكل الفكرية، وماوقعت كل هذه الصراعات المذهبية، والتناحر الإيديولوجي بيننا.

○ السفسطائي الديني: أكيد..ولكن نحن الان بعد ماتوجهنا لهذا السؤال، وأهميته، أريد أن أعرف الإجابة عليه من وجهة نظرك كفيلسوف.

● الفيلسوف: دعني أولا اذكر لك الآراء الأخرى في هذه المسألة المهمة، والتي عادة مايجيب بها رموز التيارات الفكرية المختلفة عندما يواجهون هذه المسألة، ثم اذكر لك بعدها نظر الفلاسفة العقليين في ذلك.

○ السفسطائي الديني: نعم تفضل فكلي أذن صاغية.

● الفيلسوف: هناك من ذهب إلى أنّ الحق هو المشهور بين الناس داخل المجتمع، سواء كان دينيا، أو وضعيا، أو المقبول من كبرائهم من أهل العلم والخبرة الموثوقين، سواء كانوا من رجال الدين أو الفكر....وهذا ماعليه أكثر الناس.

○ السفسطائي الديني: وهؤلاء أنا منهم طبعا... لأنّ تديني ـ وكما تقول ـ قد ورثته من أبواي، أو من المشايخ الذين أثق فيه، ولكن ماالمشكلة في ذلك، إذا كان ماورثته يقول أنّ الحق ماقاله الله ورسوله؟

● الفيلسوف: ليست المشكلة في نفس المحتوى الفكري لما ورثته، أو قبلته

من العلماء ورجال الدين الذين تثق فيهم، فهذا بحث آخر، المشكلة في تعريف الحق بالتعصب للموروث المشهور، أو المقبول من الأكابر، لمجرد كونه مأنوسا، أو مألوفا بيننا...لأنّ كل هذه الأمور نسبية ومتغيرة، تختلف باختلاف الزمان والمكان كما قلت لك في السابق.

○ السفسطائي الديني: نعم نعم...تذكرت...وهذا الكلام، وإن كان مؤلما لي، ولكن في نفس الوقت لايمكن إنكاره، فهي أمور نسبية متغيرة، فلايمكن الاعتماد عليها بنحو مطلق، أو فرضها على الاخرين...ولكن لماذا يذهب أكثر الناس إلى هذا المذهب، مع وضوح خطئه؟!

● الفيلسوف: أولا، الكسل أو التكاسل، أو استصعاب التفكير المستقل، فيفضلون الفكر الجاهز، كالطعام الجاهز، بدلا من أن يكلفوا أنفسهم، ويطبخونه بأنفسهم.... وثانيا، الخوف من مخالفة الموروث المشهور الراسخ في العقول والقلوب، أو مخالفة آراء الأكابر من أصحاب الجاه العلمي، أوالسلطة الاجتماعية، حيث سيكلفهم ذلك الكثير، ويضطرون أن يدفعوا ثمنا باهظا، كاالذي يدفعه كل من يسبح خلاف التيار.

○ السفسطائي الديني: نعم... للأسف الشديد...الظاهر أنّ هذا هو الواقع...على أي حال كمل كلامك.

● الفيلسوف: وهناك من ذهب إلى أنّ الحق هو النافع الذي يحقق مصلحة الإنسان، ويؤدي إلى نجاحه في الحياة، وهو المذهب العملي البرجماتي.

○ السفسطائي الديني: وماهي المشكلة في ذلك؟

● الفيلسوف: المشكلة أولا أنه متعلق بالاعتقادات العملية التي يمكن أن تسبب النفع أو الضرر، ولاعلاقة له ببيان الحق في القضايا النظرية، ككون الأرض كروية أو تدور حول نفسها في كل يوم، أو صحة الكثير من المسائل والمعادلات الرياضية، أو الفلسفية النظرية، وثانيا، أنه لم يبين لنا معنى النجاح أو المصلحة، فهل المصلحة هي مصلحة الفرد، ولو على حساب المجتمع، كما في الرؤية الرأسمالية اليمينية، أو مصلحة المجتمع، ولو على حساب مصلحة الفرد، كما في الرؤية الاشتراكية اليسارية، أو هل هي مصلحة مادية كما عند الماديين، أو معنوية كما عند المتدينين...فإذا هذه النظرية ايضا كالتي قبلها نظرية نسبية متغيرة، لايمكن اعتمادها كنظرية عامة مطلقة موضوعية.

○ السفسطائي الديني: نعم... الإشكال واضح... وهل هناك مذاهب أخرى في فلسفة الحقيقة؟

● الفيلسوف: في الواقع ظهرفي العصر الحديث في الغرب مذهب غريب، يدعي أنه ليس هناك حق وباطل مطلق، بل يكفي مطلق الانسجام بين اجزاء المعتقد، أو الانسجام مع طبيعة الشخص...ومن الظاهرأنها متناقضة مع نفسها، حيث إنهم يقومون بالتنظير لها في المحافل العلمية، ويدافعون عنها كنظرية صحيحة مطلقة وواقعية!!، ويسعون لإبطال مايخالفها... ومن الواضح أنّ من اعتنق مثل هذه المذاهب السفسطائية، هو من باب ضيق الخناق، والعجز

عن التعرف على الميزان العلمي الموضوعي الذي يكشف لنا الواقع كما هو.

○ السفسطائي الديني: في الواقع هذه ورطة حقيقية، ولاأدري كيف يمكن أن نخرج منها...يعني كل هؤلاء المفكرون إما متعصبون، وإما سفسطائيون شكاكون؟!.

● الفيلسوف: سيتبين لك في جلستنا القادمة إن شاء الله، أنّ كل من فقد الميزان العقلي الموضوعي الصحيح، أُصيب إما بالإفراط أو التفريط، ووقع في المتاهة الفكرية، ودخل في هذا النفق المظلم الذي لانهاية له.

○ السفسطائي الديني: وأنا أنتظر بكل شوق ماستطرحونه من بديل واقعي للخروج من هذه المحنة.

الفصل السادس

○ السفسطائي الديني: انتهى كلامنا في المرة السابقة عند بيان الآراء المتعددة حول معنى الحق، وكيف نعرفه، وقد قمتم بنقدها وتفنيدها على أساس أنها نسبية متغيرة، ولايمكن التعويل على شيء منها، كمعيار علمي موضوعي مطلق...والان جاء دوركم لتبينوا لي رأيكم كفيلسوف عقلاني في هذه المسألة المعقدة.

● الفيلسوف: في الواقع المسألة ليست معقدة، ولكن وجودنا في داخل هذه المتاهات الفكرية هو الذي عقّد علينا الأمور، ونتيجة لكثرة القيل والقال، وتصدي كل من هب ودب، بالإضافة إلى إقصاء العقل الإنساني عن حياتنا الفردية والاجتماعية، لدوافع سياسية وأيديولوجية.

○ السفسطائي الديني: وماالعمل للخروج من هذه المتاهة وحل هذه العقدة؟

● الفيلسوف: لاسبيل للخلاص، وحل هذه المشكلة الفكرية إلا بالعودة إلى التحليل العقلي لمبادئ التفكير الأولى التي ننطلق منها في بناء آرائنا، واتخاذ قراراتنا، وتشكيل رؤيتنا عن الحياة، ثم نقوم بفرزها وتصفيتها، وتمييز الصواب من الخطأ فيها.

○ السفسطائي الديني: ولكننا هنا نكون قد رجعنا إلى المربع الأول، وهو ماهي المعلومات الصائبة الصادقة، وكيف نعرفها؟

● الفيلسوف: المعلومات الصحيحة هي الواضحة عند العقل، عند كل عقل، ولايختلف على وضوحها إثنان، مثل مفهوم الوجود والعدم، ومفهوم اللذة والألم، ومثل امتناع اجتماع النقيضين، واستحالة اجتماع الصدق والكذب، وأنّ الإنسان إنسان، وأننا موجودون، وأننا نفكر، ونعتقد، وننتقد، ونشك، وأنّ هناك عالم خارجي نفعل فيه، وننفعل عنه، وأنّ كل أمر حادث يفتقر إلى سبب يخرجه من العدم إلى الوجود، وأنّ فاقد الشيء لايعطيه، وهو قانون السببية البديهي، وكذلك حسن العدل، وقبح الظلم، وحسن الوفاء والأمانة، وقبح الغدر والخيانة، وغير ذلك من المفاهيم الواضحة، والقضايا البديهية التي لاتحتاج إلى دليل يدل عليها، بل بها نفهم الأشياء ونستدل عليها.

○ السفسطائي الديني: لاشك في وضوح هذه المعلومات عند كل إنسان، ولكن السؤال هو هل معنى كلامكم هذا أنّ المعلومات الصحيحة، هي المعلومات الواضحة عند العقل؟

● الفيلسوف: تماما هكذا...وهذا الوضوح ليس مجرد وضوح نسبي، بل العقل يدرك ذلك بتحليله، ومشاهداته الحدسية، وتمييزه بين ماهو واضح مثل مفهوم الوجود، والعدم، وماهو غير واضح كمفهوم الطاقة أو الروح، وبين الاعتقاد بمالايحتاج إلى دليل يدل عليه، مثل الحكم بامتناع التناقض، أو كوننا موجودين، وبين مايحتاج إلى دليل يدل عليه كتحول المادة إلى طاقة أو العكس، أو وجود حياة بعد الموت....وكل من حاول أن يشكك في هذه الأحكام البديهية، فهو في الواقع يعتمد عليها دون أن يدري.

○ السفسطائي الديني: ممكن أن توضحوا لي ذلك أكثر.

● الفيلسوف: لأنه عندما يدّعي أنّ هذه الأمور غير واضحة، فهو يقصد أنها غير واضحة عند عقله، وعندما يشكك فيها، فهذا معناه أنه لايستطيع أن يرجح أحد طرفي النقيض، ولا يستطيع أن يجمع بين النقيضين، ولذلك يقع في الشك، وعندما يرفض استدلالاتنا، فهو يرى أنها ليست علة ذاتية للنتيجة المطلوبة، وهو مبني على التسليم بأصل السببية، وهكذا....

○ السفسطائي الديني: هذا واضح إلى الان، ولكن كيف يمكنني أن أتعرف على سائر المفاهيم والاعتقادات غير الواضحة، وأضمن صحتها.

● الفيلسوف: معرفة الآراء والاعتقادات بنحو صحيح، هوأن تنطلق من تفكيرك من تلك المبادئ الواضحة للتعرف على المعلومات غير الواضحة، وهذا هو المنهج العقلي البرهاني المستقل، والذي تم بيان قوانينه التفصيلية في علم المنطق العقلي، وهذا هوالذي يضمن لك الواقع، بعيدا عن الظنون والأوهام والخرافات.

○ السفسطائي الديني: وبالتالي في رأيكم، ينبغي إخضاع أي اعتقاد ديني أو غير ديني لهذا المنهج العقلي، قبل اعتناقه أو التعصب له.

● الفيلسوف، أكيد بالطبع...وإلا فكيف يمكنه أن يضمن صحة اعتقاده، فالاعتقاد الصحيح، هو ماأدى إليه التفكير العقلي الصحيح، وكان مطابقا في أصوله ومبادئه للرؤية العقلية، وإلا سيكون مجرد إدعاء وخرافة لاغير.

○ السفسطائي الديني: ومن يغفل عن تلك المبادئ العقلية، أويجهل المنهج العقلي البرهاني، ماذا عساه أن يفعل؟

● الفيلسوف: يفعل كما فعلت أنت، وغيرك، فليس أمامه إلا التقليد... فإما أن ينطلق في تفكيره من مبادئ عرفية مشهورة مأنوسة لديه، دينية كانت أو غير دينية، ويتبنى نفس آراء مجتمعه وبيئته التي نشأ فيها، أو يعتمد آراء الأكابر الذين يحبهم ويعظمهم ويثق فيهم، ليفكروا بالنيابة عنه، أو يرجع إلى استحساناته وانفعالاته الشخصية العاطفية، أو ينطلق من مصالحه الشخصية والفئوية، وغير ذلك من المبادئ النسبية المتغيرة، والتي لايمكن أن تضمن له المعرفة الواقعية بأي حال من الأحوال.

○ السفسطائي الديني: سبحان الله...ولكن هذا هو المنهج الذي يسير عليه أكثر الناس، وهي مآساة حقيقية، ودوامة واقعية، وقلما من يستطيع أن ينجو منها أحد، ويفكر تفكيرا عقليا مستقلا.

● الفيلسوف: ولذلك فقد أصبح أكثر الناس ضحايا وعبيد عند من تمكن من أن ينتهز فرصة تغييب العقول؛ ليحقق من خلالها مصالحه الشخصية والفئوية للهيمنة على الشعوب، وفي مقدمتهم رموزالاتجاه الرأسمالي الليبرالي في الغرب، الذين لم يألوا جهدا في استعمال جميع أساليب الحرب الإعلامية الناعمة المضللة؛ للسيطرة على عقول الشعوب المستضعفة، ونهب ثرواتهم.....وكذلك رموز الكثير من الاتجاهات الدينية الانتهازية، التي استغفلت واستعبدت الكثير من الناس البسطاء، ودفعت بهم في أتون الصراعات الدينية والمذهبية تحت شعارات مزيفة.

○ السفسطائي الديني: ولكن ماهي الخطوات العملية للتحرر من هذه

المتاهة، والخروج من هذا النفق المظلم؟

● الفيلسوف: الطريق هو في عودة الوعي للشعوب، بالرجوع إلى أنفسنا، واعتماد منهج التفكير المستقل، وتعلم قواعد التفكير العقلي المنطقي الصحيح، لإيقاظ عقولنا من هذه الغيبوبة الطويلة، ثم نشرع في فحص منطلقاتنا الفكرية بنور العقل الإنساني، من أجل التخلص من تلك المبادئ الخاطئة التي زرعوها في أدمغتنا في هذه المتاهة، والتي يتحكمون فينا من خلالها، واستبدالها بالمبادئ العقلية الواقعية الواضحة....وعندها سنكون أحراراً بتمام معنى الكلمة.

○ العاقل: نعم نعم...شكرا جزيلا لكم...الان اتضحت لي الأمور، بعد هذا التشخيص الدقيق للمحنة التي نعيشها، وأصبح الطريق ممهدا للسير والاستكشاف... وأنا اعتذر منكم بشدة عما بدر مني تجاهكم من الإساءة، وسوء الظن، والتي كان منشؤها التعصب والتحجر الفكري، وأنا أعدكم بأن أشرع في تعلم قواعد التفكير العقلي الصحيح، وأن أعتمد الموضوعية في حياتي، وأن أسعى لاستنقاذ الاخرين من هذا المستنقع، كما انقذتني أنت منه.

● الفيلسوف: أنا سعيد جدا بأن أسمع منكم هذا الكلام الجميل....وأتمنى لكم النجاح والتوفيق من كل قلبي، ولولا حسن استعدادك، وتغلبك على مشاعرك وانفعالاتك، ما وصلت إلى ماوصلت إليه الان...وأنا تحت أمرك في أي شيء تحتاجه في حياتك الإنسانية الجديدة.

المشهد الرابع

الحوار مع السفسطائي الروحي

الفصل الأول

○ السفسطائي الروحي: في الحقيقة لم أكن في البداية مقتنعا بالدخول في الحوار معكم، لعدم قناعتي بجدوائية ماتسمونه بالحوار الفكري؛ لأنه ليس إلا إتلافا للوقت، وإضاعة للعمر، ولولا صداقتنا القديمة من جهة، وإصراركم على الحوار معي من جهة أخرى، مافكرت لحظة في التحاور معكم.

● الفيلسوف: مع احترامي الشديد لشخصكم الكريم، ولكن لماذا تنظرون هذه النظرة السلبية القاتمة إلى الحوار الفكري البنّاء، وتعتبرونه إهداراً للوقت، ومضيعة للعمر، على الرغم من كونه من أعظم وأجمل مظاهر الإنسانية والتمدن؟

○ السفسطائي الروحي: أخبرني أنت أولا عن جدوائية مثل هكذا حوارات فكرية، حتى أخبرك عن رأيي بعد ذلك.

● الفيلسوف: لاشك أنّ الحوار الفكري له فوائد متعددة، على المستوى المعرفي والنفسي والاجتماعي.

فعلى المستوى المعرفي فالحوار يساعدنا على الوصول إلى الحقيقة والرأي الصائب، أو لأقل الرأي الأقرب إلى الصواب، عن طريق تلاقح الأفكار، واكتشاف مواطن الخلل في أنماط تفكيرنا، وأفكارنا، وأسلوبنا في الحياة؛ من أجل تغييرها إلى الأفضل.

ومن الناحية النفسية، فالإنسان يشعر ببهجة كبيرة وسعادة حقيقية، في ممارسته لحقه الطبيعي كإنسان مفكر، وكصاحب رأي أو رؤية في الحياة، وفي إقناعه لغيره، والتأثير على الاخرين.

وأما الفائدة الاجتماعية فالحوار هو أفضل طريقة للتفاهم والتوافق بين أفراد المجتمع البشري، وتحقيق التعايش السلمي.

○ السفسطائي الروحي: جيد..دعنا الان ننظر في كل ماادعيتموه حول أهمية ماتسمونه بالحوار الفكري، لنرى مدى حقانيته وواقعيته.

● الفيلسوف: تفضل..فأنا قد عودت نفسي على أن أصغي للرأي المخالف مهما كان مصدره.

○ السفسطائي الروحي: أولا – بالنسبة لما تدعيه من الفائدة المعرفية للحوار الفكري، من كونه يوصلنا للحقيقة، فهو مجرد وهم؛ لأنه مبني أساساً على قدرة التفكير العقلي للوصول إلى الحقيقة، مع أنّ العقل في الحقيقة لايدرك إلا قشور المعارف، دون لبابها، لأنه من عالم الظلمات، ولايدرك الحقيقة في الواقع إلا قلب الإنسان؛ لأنه من عالم الأنوار، ولكن بعد تخليته من الرذائل الأخلاقية والنفسية، وقطع علائقه المادية بهذه الدنيا الدنية، وتحليته بالفضائل الإنسانية المعنوية.....وبناء عليه فالحوار القائم على مثل هذه المعرفة العقلية هو مجرد عبث وهراء.

● الفيلسوف: ماشي...هذا رأيك على أي حال، وأنا أعرفه مسبقاً،

ولكني لا أريد أن أعلق عليه حتى تنتهي من كل كلامك.

○ السفسطائي الروحي: ثانيا – أما بالنسبة للفائدة النفسية المزعومة، فالبهجة أوالسعادة الحقيقية ياأخي العزيزلاتحصل من القيل والقال، أوالجدل العقيم، الذي يسعى فيه كل طرف لإبراز ذاته وأنانيته، بل السعادة الحقيقية في نكران الذات، واعتزال الناس، والتأمل الروحي الوجداني في حقيقة النفس، وفي ملكوت السموات والأرض؛ من أجل التحرر من سجن البدن المظلم، والتحليق في عالم الأنوار والقرب الإلهي.

وأما بالنسبة للفائدة الاجتماعية للحوار التي ذكرتها من تحقيق التفاهم والتعايش السلمي، فالواقع المشهود على خلافه تماما، حيث نجد أنّ أغلب هذه الحوارات العقيمة محفوفة بالسباب والمهاترات، وتنتهي بالمزيد من الأحقاد التي تعمق الفجوات بين الناس، وبالتالي تؤجج من حدة الصراعات الدينية والمذهبية، والطائفية والقومية داخل المجتمع البشري.

● الفيلسوف: جيد...هل هذه هي كل انتقاداتك حول الحوار الفكري؟

○ السفسطائي الروحي: نعم، واعتقد أنّ فيها الكفاية لإثبات عدم جدوائيته، وأنّ ضرره أكثر من نفعه.

● الفيلسوف: ألا يكفي أنك من خلال نفس هذا الحوار، استطعت أن تنقل لي وجهة نظرك المخالفة له؟

○ السفسطائي الروحي: ماذا تقصد من كلامك هذا؟

● السفسطائي الروحي: أقصد أنك قد نقدت الحوار، وأثبت عدم جدوائيته عن طريق نفس الحوار، وهذا تناقض!...فلايمكنك أن تستعمل نفس الحوار لتعترض به على أصل الحوار الفكري، وعلى أنه هو الوسيلة المنطقية الوحيدة للتفاهم بين الناس.

○ السفسطائي الديني: أممم....أنا...أنا فقط أردت نصيحتك لاغير، حتى لاتضيع وقتك ووقت الاخرين فيما لاينفع...ثم أنك أنت الذي دعوتني للحوار، وأيضا...

● الفيلسوف: على أي حال...أنا لاأريد أن أفرض عليكم رؤية معينة، كل ماأردت أن أقوله، أنه من الطبيعي جدا أن نختلف، ولكن يبقى الحوار هو الأسلوب الوحيد للتفاهم، وللإقناع والاقتناع...وإلا فما هو البديل؟ أتريد للناس أن تسير خلفك مغمضة العينين، وتسلم بكل ماتقول بلا أي نقاش؟!!..أو أن تفرض عليهم رأيك بالقوة، أو أن تستمر التعصبات والصراعات بيننا...

على أي حال بعد أن عبّرتم لي عن وجهة نظركم النقدية للحوار الفكري، فاسمح لي أن أجيب عنها بكل هدوء، لتتأملوا فيها لتجيبوا عليها بدوركم بعد ذلك، ويستمر الحوار بكل هدوء وانسيابية لنصل إلى نتيجة في النهاية إن شاء الله.

○ السفسطائي الروحي: أنا من ناحيتي مقتنع تماما، ومؤمن من كل قلبي بصحة رؤيتي واعتقادي، ولست في حاجة لمثل هذا الحوار....ولكن بما أنني في بيتك، وكونك صديقا قديما لي، فلابأس من أن استمع إليك، بشرط

ألا تطول الكلام معي، حيث إن كثرة الكلام، والمراء تميت القلب، وتكدر النفس.

● الفيلسوف: أعدك بذلك...وأنا بحمد الله لست من المجادلين، أو المراوغين، ودائما ما أقول خير الكلام ماقل ودل.

○ السفسطائي الروحي: إذن تفضل....وهات ماعندك.

● الفيلسوف: بالنسبة لقولك أن الحوار الفكري مبني على التفكير العقلي، قول صحيح، ولكن إدعاؤك بأن العقل عاجز عن الوصول إلى الحقيقة فغير صحيح، وكيف عرفت ذلك، فهذا إدعاء خطير للغاية، ويمكن أن يدفع بالإنسان إلى أن يسلك طريقاً مجهولاً....فما هو دليلك على هذا الإدعاء؟

○ السفسطائي الروحي: لأنّ العقل بكل بساطة يأخذ معطياته من الحس، والحس لايدرك إلا قشور عالم المادة، فهو ليس من سنخ عالم الروح والمعنى، فكيف يمكنه أن يصل إلى عالم الغيب، وهو حبيس عالم المادة المظلم، هذا بالإضافة إلى تأثر أحكام العقل بالوهم والخيال، والمزاج، والغرائز الحيوانية، والأعراف الاجتماعية...

● الفيلسوف: عن أي عقل تتكلم؟ وماهو منشأ كل هذه الأحكام المتتالية التي أطلقتها؟ إذا كان منشؤها هو عقلك؟ فكيف تستدل به، ثم تشكك في أحكامه، وإذا كنت اعتمدت على غير عقلك، فما هو ذلك الغير، وكيف أحرزت صلاحيته العلمية؟

○ السفسطائي الروحي: أنا سبق وأن قلت لك أنني اعتمد على قلبي،

بعد تطهيره؛ لأنه هو الطريق الوحيد الذي يوصلني الى الحقيقة.

● الفيلسوف: وكيف دلك قلبك على كل هذا....ارجوك افهمني جيدا...أنا كلامي واضح...انت شككت في قدرة العقل أولا، ثم أعرضت عنه ثانيا، ثم انتخبت القلب كطريق للمعرفة الحقيقية ثالثا...فما الذي دعاك لاتخاذ كل هذه الأحكام والمواقف، وماهي الوسيلة التي اعتمدتها في ذلك....وما معنى الحقيقة عندك، وكيف عرفتها....كل هذا ينبغي أن تبينه لي أولا بنحو علمي موضوعي؛ حتى تستطيع أن تبرر موقفك الحالي، وإلا لأصبح كلامك كله مجرد مصادرات، وشعارات جوفاء.

○ السفسطائي الروحي: لا لا..أرجوك أن تحترم رأيي ومشاعري، ولاتحملني مالاطاقة لي به، أنت تطالبني بالدليل على كل ماأقوله، وهذا هو نهجكم أيها الفلاسفة، وأنا طريقي هو طريق أصحاب المعني والقلوب من العرفاء والروحانيين، وأنا مؤمن بهذا، والمؤمن قلبه دليله.

● الفيلسوف: ياأخي العزيز الله يعلم أني لاأقصد أن أبطل اعتقادك، أو أجرح مشاعرك، وأنت حر في انتخاب أي طريق تراه صحيحا، وتتحمل مسؤولية ذلك، ولكن كلامي في سبب وكيفية إعراضك عن طريق معين، وانتخابك طريقا آخر تبرمج على أساسه كل حياتك، وتبني مصيرك عليه، أليس من حق الإنسان أن يسأل نفسه لماذا فعل كل هذا، قبل أن يجد نفسه قد دخل في نفق مظلم لانهاية له.

○ السفسطائي الروحي: على أي حال يحتاج الأمر أن أتأمل فيه أكثر من هذا، لأجيبك بالنحو الذي يقنعك.

● الفيلسوف: عليك أن تقنع نفسك أولا قبل أن تقنعني، فخذ وقتك من التفكير حتى لقاء آخر إن شاء الله.

الفصل الثاني

● الفيلسوف: أراك الليلة تبدو مرهقا، وكأنك قد اتعبت نفسك كثيرا خلال النهار، فإن كنت تعباناً، فيمكن أن نؤجل الجلسة لفرصة أخرى.

○ السفسطائي الروحي: لا لا أبدا...يمكننا إدامة الحوار في هذه الليلة أيضا، ولكنني في الواقع ظللت في الأمس طوال الليل أفكر كثيرا فيما طرحته علي في الجلسة السابقة، بحيث لم أستطع النوم جيدا، وفي الصباح شعرت بصداع في رأسي، مازال يلازمني إلى الان.

● الفيلسوف: عندي أقراص جيدة للصداع، دعني أحضر لك قرصا منها.

○ السفسطائي الروحي: لا لا شكرا...لقد تناولت قرصا قبل مجيئي، وإن شاء الله يذهب الصداع تدريجيا.

● الفيلسوف: من الواضح أنك لم تعود نفسك التفكير العقلي المستقل كأكثر الناس، حيث يجعلون غيرهم يفكرون بالنيابة عنهم، ولذلك عندما غيرت عادتك، وفكرت بنفسك، وشغّلت عقلك أصابك الصداع.

○ السفسطائي الروحي: أشعر كأنك تسخر مني.

● الفيلسوف: لالا على الاطلاق...وإنما أردت أن أبين لك وجهة نظري لاغير.

○ السفسطائي الروحي: لا أدري ماهو مقصودك من التفكير العقلي المستقل، وماهو الضامن لصحته، ولماذا حصرت معرفة الحق فيه؟

● الفيلسوف: جيد جدا...الان بدأت تضع قدميك على أعتاب الحوار الفكري البنّاء، ولكن قبل ان أجيبك على أسئلتك، أود أن تجيبني أولا على الأسئلة التي طرحتها عليك في الجلسة السابقة، وليس ذلك من باب الجدل، أو التهرب من الجواب، ولكن لأنّ جوابك عليها سيمهد الأرضية للجواب على ماطرحتموه من أسئلة.

○ السفسطائي الروحي: كنت قد أجبتك عن سبب إعراضي عن العقل، واعتمادي على القلب، ولكن لم يقنعك جوابي.

● الفيلسوف: بالتأكيد...لو كان كل إدعاء نقوله، أو أي حكم نطلقه كاف في التصديق به، أو إقناع الاخرين، لصدقت كل الآراء والاعتقادات، وماحتجنا إلى البحث والتحقيق، أو التحاور مع بعضنا البعض....فهذا يعتمد على حسه، واخر على قلبه، وهذا على شيخه، واخر على استحساناته الشخصية، أو أعرافه الاجتماعية، أو الدينية.

○ السفسطائي الروحي: نعم للأسف الشديد...وهذا يدل على ضعف الإنسان، وأننا نعيش في هذا العالم في أزمة معرفية، ولا خلاص منها إلا بالاعتراف بالعجز، والانقطاع إلى الله تعالى بالقلب السليم، بعد تفريغه من الأغيار، والاستعانة بالشيخ العارف الواصل، ليدلنا على الطريق، وليأخذ بأيدينا إلى بر الأمان.

● الفيلسوف: لابأس...هذه وجهة نظرك على أي حال، ولكن عليك أن تعترف أنك أولا قد توصلت إلى ماتوصلت إليه بالتفكير، ومن خلال التفكيراقتنعت بما أنت عليه من اعتمادك على قلبك وشيخك...صحيح؟

○ السفسطائي الروحي: أممم....ولو سلمت بكلامك، ماهي المشكلة؟

● الفيلسوف: المشكلة هي في مشروعية هذا التفكير الذي اعتمدت عليه في بناء رؤيتك، ومدى صلاحيته العلمية، لانه لو كان خطأً لأصبحت رؤيتك المبنية عليه مورد شك وترديد، وتكون قد وقعت في نفس المشكلة التي أردت أن تهرب منها.

○ السفسطائي الديني: الله يسامحك، لماذا تُعقّد الأمور هكذا..على أي حال هل يمكن أن توضح كلامك أكثر.

● الفيلسوف: هذه في الواقع مشكلة عامة...وهي أنّ الناس جميعا يفكرون، ويحكمون، ويبنون رؤيتهم وعقائدهم ومواقفهم في الحياة على أساس هذا التفكير، دون أن ينتبهوا إلى نفس عملية التفكير، ومبادئها التي انطلقوا منها في تفكيرهم، وأنه هل كانت مبادئ صحيحة أم لا.

○ السفسطائي الروحي: أنا لاأخفي عليك، أنه ربما ماتقوله الان هو الذي كان يؤرقني ليلة أمس، وكنت أحاول أن أهرب منه دون جدوى، فنحن – وكما تقول – عادة مانفكر للوصول إلى الحقيقة، أو اتخاذ موقف معين، إيجابيا أو سلبيا، ولكن لانفكر في نفس التفكير...ولكن كيف نفكر في نفس التفكير، وهل للتفكير مبادئ كما تقول؟

● الفيلسوف: بالتأكيد... فالتفكير العقلي له مبادؤه وقوانينه الطبيعية، شأنه في ذلك شأن أي عضو من أعضاء الإنسان، والتفكير على أساس هذه القوانين والمبادئ الطبيعية، هو مظهر الصحة العقلية، وسلامة التفكير، وهذه القوانين كان قد اكتشفها الحكماء ودونوها في كتب المنطق، كما دون الأطباء قوانين وظائف أعضاء جسم الإنسان، وانت – كغيرك من الناس – لم تكلفوا أنفسكم عناء الرجوع لهذه القوانين العلمية المنطقية، والاطلاع عليها، بل قمتم برفضها، والتشكيك فيها، واعتمدتم على أدوات أخرى للمعرفة، كما اعتمدت أنت على قلبك ووجدانك، أوعلى ما يلقنه لك شيخك، مع احترامي لاختيارك وتقديري لشيخك، ولكن كان الأولى بك أن تتأمل ولو قليلا في مدى صحة تفكيرك الذي قادك إلى هذا الطريق.

○ السفسطائي الروحي: غريبة!..هذا كلام أول مرة أسمعه في حياتي... يعني الإنسان حتي يفكر تفكيرا صحيحا لابد وأن يتعلم قوانين المنطق؟!

● الفيلسوف: طبعا ياعزيزي....إذا أردت أن تضمن سلامة تفكيرك فليس أمامك إلا أن تتعلم قواعد أو" جرامر" التفكير، وإلا فأنت في مهب الريح، حيث لن يكون أمامك إلا التقليد، أو الاستحسان الشخصي.

وفي المنطق تتعلم كيف تنتخب المعلومات الصحيحة الواضحة عند العقل، وكيف تقوم بترتيبها على الصورة الصحيحة؛ لتصل إلى النتائج الواقعية المطلوبة.

والان دعنا نعود لإشكالاتك على التفكير العقلي، وأنه مادي، وعاجز عن معرفة الحقيقة.

○ السفسطائي الروحي: نعم هذا ماقلته، وأنّه لايدرك إلا المعاني المحسوسة، وأنه عاجز عن الوصول إلى الحقائق المعنوية الغيبية المجردة.

● الفيلسوف: ألا يدرك العقل عند كل الناس معاني الإيمان، والعدالة، والحرية، وتناضل الشعوب من أجلها؟

○ السفسطائي الروحي: بلاشك، وهذا أمر واضح عند الجميع.

● الفيلسوف: وهل هذه المعاني معاني مادية محسوسة، في زمان أو مكان، أو جهة معينة، أو أنها وراء المادة؟

○ السفسطائي الديني: أممم...أظن أنها غير محسوسة، ولايمكن أن نقول أنّ لها مكان أو شكل أو لون، كسائر الماديات.

● الفيلسوف: جيد جدا....إذن فهي غير مادية، ومجردة عن المادة، وهذا مانسمية بالمعاني العقلية، وهي نفس مدركات العقل الإنساني عند كل إنسان...وبهذا يتبين لنا أنّ العقل ليس ماديا كما تظن، وأنه يدرك ماوراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا، أو كما نسميه عالم الغيب.

○ السفسطائي الروحي: سبحان الله!...كيف كنت غافلا عن هذا الأمر؟

● الفيلسوف: لأنك كنت تردد مايقوله الاخرون لك، بلا تعقل أو تدبر، أو بعبارة أخرى دون أن تفكر تفكيرا عقليا مستقلا، فكانت آراؤك مجرد آراء تقليدية انفعالية.

إن وظيفة العقل الإنساني في الحقيقة، هو البحث عما وراء الطبيعة، وقد استعمله الفلاسفة الحقيقيون، من أمثال أفلاطون، وأرسطو، والفارابي وابن سينا، وابن رشد، في الكشف عن أسرار الوجود في مباحثهم الميتافيزيقية، دون الاعتماد على الحس أو التجربة، أو ماتسميه أنت بالقلب، ويمكنك أن تراجع ذلك بنفسك في كتبهم الفلسفية المشهورة.

○ السفسطائي الروحي: وهل توصلوا بالفعل بعقولهم إلى نتائج واقعية، كالتي توصل إليها العرفاء والصوفية الكباربقلوبهم.

● الفيلسوف: أنا لاشأن لي الان بما توصل إليه الفلاسفة أو العرفاء الروحانيون، ولكن مايمكنني أن اقوله لك الان، هو أنّ العقل الإنساني قادر على الخوض في أعماق الطبيعة والوجود، والكشف عن أسراره بنحو منطقي مضمون، ومأمون من الخطأ إذا راعينا قوانينه المنطقية الصحيحة، لأنه ينطلق من مبادئ علمية موضوعية، كالمبادئ الرياضية، ولاينطلق من مبادئ تقليدية انفعالية، دينية أو وضعية أو شخصية.

○ السفسطائي الروحي: هذا الأمر يحتاج بالفعل إلى دراسة أعمق، ولكن على أي حال أريد أن أعرف رأيك في القلب الإنساني الذي اعتمد عليه في معرفة الحقيقة، والذي أطمئن إليه يقينا، وقد اعتمدت عليه بالفعل في سلوكي في الحياة، وتحت إشراف كبار المشايخ الروحانيين، وشاهدت بنفسي من المكاشفات الغيبية الكثيرة، التي لايمكن التشكيك فيها.

- الفيلسوف: بالنسبة للقلب الذي تعتمد عليه تبعا لإرشادات مشايخك، فهو يحتاج إلى بحث مستقل عن مدى صلاحيته العلمية، لنتمكن بعدها أن نحكم عليه بنحو موضوعي، وإلى أن يحين حينه عليكم بالتأمل جيدا فيما طرحته عليكم، حيث إننا سنبني عليه حوارنا القادم إن شاء الله.

الفصل الثالث

○ السفسطائي الروحي: لقد تأملت فيما ذكرتموه من قدرة العقل الإنساني على الخوض في الأمور الغيبية المعنوية، وأنّ صلاحيته العلمية في الكشف عن الواقع مأخوذة من مطابقة تحليلاته وأحكامه للقوانين المنطقية المبيّنة في علم المنطق، والتي تمثل مظهر الصحة العقلية، والسلامة الفكرية.

● الفيلسوف: نعم هذا تماما ماأردته بدقة.

○ السفسطائي الروحي: نعم...ولكن يبقى الكلام في حصر المعرفة الإنسانية فيه، ومصادرة مصادر المعرفة الأخرى، لاسيما القلب الإنساني، الذي هو من روح الله، وعالم الملكوت.

● الفيلسوف: من قال لك أننا نحصر المعرفة الإنسانية في العقل الإنساني، بل هناك أدوات معرفية أخرى معتبرة، كالحس والاستقراء والتجربة، والنقل الديني والتاريخي، ومنها القلب أيضا الذي تؤمن أنت به وتعتمد عليه، ولكن ينبغي أن تكون جميع هذه المصادر المعرفية تحت إشراف وحكومة العقل، لأنّ العقل هو الأداة المعرفية الوحيدة المبتنية على مبادئ بديهية موضوعية واضحة، وصادقة بذاتها، وسائر الأدوات والمصادر المعرفية بما فيها القلب تكتسب مشروعيتها المعرفية من العقل.

○ السفسطائي الروحي: تقصد أن تكون الحاكمية للعقل، وسائر المصادر المعرفية وزراء، وأدوات له تعمل تحت إشرافه.

● الفيلسوف: بالتأكيد...وهذا ماسأشرحه لك بعد ذلك، ولكن دعني أولا أجيب على سؤالك حول الصلاحية العلمية لما تسميه بالقلب.

○ السفسطائي الروحي: نعم وهذا مايهمني الان بالفعل، واترقب جوابكم حوله.

● الفيلسوف: لاشك أنّ القلب كأداة معرفية يمثل جوهر النفس الإنسانية، وهو مجرد عن المادة وهو – كما تقول – من سنخ عالم التجرد والملكوت، وبالتالي فله القابلية لأن يعكس بعض المعارف والصور الغيبية عند تصفيته بالرياضة الروحية(spiritual refinement)، وعند التركيز والتأمل الباطني (introspection) بعيدا عن ضوضاء عالم المادة، ومن ضمن مصاديق تلك المعارف هي المنامات التي يشاهدها الإنسان في نومه، أو مما يراه العارف من المكاشفات – كما تسمونها – بين اليقظة والمنام....وهذا أمر واقع، ولاينكره الحكماء.

○ السفسطائي الروحي: إذن أنتم تقبلون بحمد الله مكاشفات العرفاء والروحانيين، وتؤيدونها، وهذا شيء جيد.

● الفيلسوف: ولكن ليس بالنحو الذي تظنونه، بحيث نجعلها دليلا مستقلا في نفسه، أو نقدّمها على سائر الأدلة، كما تفعلون، ويفعل مشايخ الطريق عندكم، حيث لاتتمتع هذه المكاشفات بالصلاحية الذاتية، أو المشروعية المعرفية المستقلة.

○ السفسطائي الروحي: ومامانع من ذلك، فالمشاهدة القلبية الباطنية، كالمشاهدة الحسية الظاهرية، لاتحتاج إلى دليل يدل عليها، فلماذا إذن تقبلون مشاهدات علماء الفيزياء وترفضون مشاهدات العرفاء الكبار الشامخين؟!

● الفيلسوف: نحن ياأخي لا نرفض أو نكذّب وقوع مشاهدات العرفاء والروحانيين، بل نرفض اعتبارها دليلا علميا مستقلا، كما نرفض تشبيهها بالمدركات الحسية كذلك.

○ السفسطائي الروحي: ومالسبب في كل ذلك، فكلاهما مشاهدات للإنسان.

● الفيلسوف: لأنه بكل بساطة المشاهدات الحسية مشاهدات موضوعية يدركها أي إنسان مباشرة عن طريق حواسه الخمس، ولا مدخلية فيها للعواطف والميولات النفسية، والتوجهات الدينية والروحية القبلية، ويمكن إثباتها وبيانها لأي إنسان آخر، على خلاف المكاشفات الباطنية.

○ السفسطائي الروحي: أرجوك ممكن توضح كلامك أكثر؛ لأنّ الموضوع حساس ومصيري بالنسبة لي.

● الفيلسوف: ماتسمونه بالمكاشفات والإلهامات الباطنية هي في الواقع مجهولة المنشأ، فلا نعلم هل مصدرها الواقع الغيبي في نفسه، أم مصدرها الإفاضات الباطنية للعقل الباطن، كأضغاث الأحلام، أو أحلام اليقظة، وهذه مسألة خطيرة للغاية، حيث كثيرا ماتتأثر أمثال هذه المكاشفات بالاعتقادات السابقة، الأمر الذي يفقدها موضوعيتها العلمية.

انظر على سبيل المثال مكاشفات البوذيين، والمسيحيين، والمسلمين بمختلف مذاهبهم، تجد أنها كلها متأثرة تماما بعقائدهم الخاصة، وتعكس ماهو مرتكز في باطنهم مسبقا، مما يؤكد على عدم كاشفيتها للواقع كما هو في الغالب، بل عادة ماتكون منصبغة بصبغة المعتقد نفسه، وميولاته المذهبية.

○ السفسطائي الروحي: صحيح...ولكن هذه فائدة وجود الشيخ المرشد الخبير، فهو وحده القادر على تمييز الرؤية الصحيحة من الكاذبة، والقادر على تعبيرها وتأويلها.

● الفيلسوف: هذه مشكلة أخرى، وهي التقليد والتبعية العمياء... قل لي بالله عليك كيف اطمئننت إلى صحة تمييزه وتأويله، ونحن مع احترامنا له – إن كان من أهل الخبرة كما تقول – ولكنه ليس معصوما من الخطأ، وهو يحمل اعتقادات معينة، وميولات نفسية، تؤثر بدورها على نزاهة وموضوعية أحكامه، فتبقى المشكلة نفسها قائمة.

○ السفسطائي الروحي: هذا معناه بكل بساطة بطلان طريق القلب، وتكذيب الشيوخ الكبار، وهذا أمر يصعب على نفسي قبوله وتسليمه، وهذا ماكنت أخشاه منذ البداية.

● الفيلسوف: أولا من شرط الحوار البنّاء هو الموضوعية والبحث عن الحقيقة، ولو كانت مُرة، وإلا فما فائدة الحوار الإنساني، والإنسان العاقل لاينبغي أن يخشى الحقيقة، وثانيا، أنا لم اقل ببطلان القلب كأداة معرفية، ولم

أقل بتكذيب مشايخك، ولكن أقول ليس لهما الصلاحية الذاتية المستقلة، ولذلك ينبغي عليك أولا أن تعرض تلك المشاهدات الباطنية، وكلام مشايخك على عقلك السليم، فإن وافقاه فخير وبركة، ونور على نور، وإن خالفاه فاجعلهما وراء ظهرك إن كنت عاقلا، وإلا فعليك أن تتوقف فيهما حتى يتبين لك واقعهما في النهاية، فأنت لست مجبورا على التسليم بشيء على أساس مجرد رؤية أو منام، أو مجرد التلقين من الاخرين.

○ السفسطائي الروحي: واللهي لاأدري ماذا أقول لك، لقد أوقعتني في حيرة شديدة من أمري، وأنا في الواقع لايمكنني أن أجيبك عن كل ماقلتموه لي الان، واحتاج إلى فترة زمانية أتامل جيدا في كل كلامك، وأعدك أن أتحلى بالتراهة والموضوعية في تفكيري وقراراتي، وإن كان هذا أمرا في غاية الصعوبة على قلبي، حيث إنني قد عشت سنوات طويلة في هذا الطريق.

● الفيلسوف: على أي حال خذ وقتك من التفكير، واطمئن تماما أنك لن تندم على معرفتك الحقيقة....وأن تتألم بعض الأيام، أفضل بكثير من أن تعيش طول عمرك في الأوهام.

الفصل الرابع

○ السفسطائي الروحي: بعد التأمل الطويل فهمت من مجموع حواراتك معي أننا في اختيارنا لأي منهج أو رؤية في الحياة، نحتاج أولا إلى التفكير بالضرورة، وأنّ هذا التفكير له قوانينه العقلية وآلياته الطبيعية التي اكتشفها الحكماء، ودونوها في علم المنطق، ونحن إذا راعينا تلك القوانين استطعنا أن نضمن صحة منهجنا ورؤيتنا، وإلا أصبح كل شيء مورد شك وترديد.

● الفيلسوف: نعم صحيح... وهذا هوأهم ماأريد أن اقوله لك، وأريد أن تفهمه، وتعيه جيدا.

○ السفسطائي الروحي: وأنا بناء على تجربتي الشخصية، أكون قد توهمت أنني قد تجاوزت عملية التفكير، واعتمدت على قلبي ووجداني وكلام شيخي مباشرة، مع أنّ الذي قادني إلى هذا الطريق هو نفس تفكيري الشخصي أولا.

● الفيلسوف: هذا ماحصل لك بالفعل، ويحصل لكل الاتجاهات الفكرية المختلفة بنحو تلقائي، سواء الدينية منها أو المادية، أو حتى التشكيكية السفسطائية، التي تنكرإمكان المعرفة البشرية، فهم جميعا ينطلقون من مبادئ فكرية معينة تم زرعها في عقلهم الباطن، من خلال البيئة التي نشؤوا وترعرعوا فيها، وهذه المبادئ هي التي ترسم لهم منهجهم ورؤيتهم في الحياة.

○ السفسطائي: هذا أمر غريب... يعني كأننا نحن مبرمجون كالكمبيوتر، ونتفاعل مع الحياة بتلقائية دون وعي وتدبر؟ إذا كان الأمر هكذا فهذه أزمة حقيقية....ولكن كيف لنا الخروج منها؟

● الفيلسوف، هذا ماأريدك أن تجيب عليه بنفسك.

○ السفطائي الديني: إذا قلت لي عن طريق التفكير العقلي، فهذا سيحتاج إلى مبادئ أخرى موجودة في أذهاننا، وإذا أردت أن اعتمد عليك وأثق في كلامك كما كنت أثق في كلام شيخي، فقد رجعنا إلى المربع الأول، ونقع في نفس الدوامة؟!!.

● الفيلسوف: لا ياصديقي العزيز، لقد أسأت فهمي، أنا لم أطلب منك أن تفكر بناء على مبادئ موجودة في ذهنك الان، أو مبادئ ألقنك إياها، ولاأطلب منك أن تثق بكلامي، وتسير خلفي، كل ماأطلبه منك هو أن تراجع حساباتك من جديد، وتفكر تفكيراً مستقلاً، وتوقظ عقلك الواعي، وتتأمل في القوانين المنطقية التي اكتشفها الحكماء، حتى تعلم كيف تفكر. ولماذا تفكر، عن وعي وبصيرة، لا عن تبعية وتقليد، ولا تقبل بأي شيء لايكون واضحا أمام عقلك، وعليك أن تميز بين ماهو واضح في نفسه، وبين ماهو مأنوس، أو محبوب لك.

○ السفسطائي الروحي: ولكن هذا أمر صعب جدا، ومعقد... كيف يمكن لكل الناس أن يفكروا بهذا الشكل.

● الفيلسوف: هذه الصعوبة الموهومة، هي من صنيعة أعداء الإنسانية،

وأكثر المؤسسات السياسية والدينية والروحية الانتهازية، التي تريد أن تهيمن على عقول الناس، وتمنعهم من التفكير المستقل....وحتى لو سلمنا بوجود مثل هكذا صعوبة، ألا يستحق ذلك التعب والعناء، كما نكد ونشقى لتحصيل أرزاقنا في كل يوم، أليست هذه مسألة مصيرية يا أخي العزيز؟، فأنت الان على مفترق طرق، إما التفكير العقلي المستقل، أو التقليد والتبعية، إما أن تفكر بنفسك، أو تدع غيرك يفكر بالنيابة عنك، وبعبارة أخرى إما أن تصنع مستقبلك بنفسك، أو تصير جزءاً من مستقبل غيرك...والأمر إليكم.

○ السفسطائي الروحي: يعني أنت تقصد أن نجعل العقل المنطقي حاكما على تفكيرنا، وكل قرارتنا؟

● الفيلسوف: هذا إذا أردت أنت أن يكون تفكيرك مستقلا، وقراراتك معقولة وواقعية، وإلا فلن يكون البديل معقولا ولا واقعيا، وستدفع ثمنا باهظا من حياتك، وكرامتك الإنسانية.

○ السفسطائي الروحي: وماذا عن القلب، ومصادر المعرفة الأخرى؟

● الفيلسوف: ستعمل كلها بفاعلية ودقة تحت إشراف وعناية العقل، لا بنحو مستقل، حيث سيضعها العقل الإنساني في مواضع ها الطبيعية؛ لتكون في خدمة الإنسان والبشرية، بدلا من أن يستغلها الأشرار والانتهازيون، تحت شعارات براقة ومزيفة، من أجل تحقيق مصالحهم غير المشروعة.

○ السفسطائي الروحي: يمكن أن توضح كلامك أكثر؟

● الفيلسوف: عندما انفصل المنهج الحسي التجريبي في الغرب عن العقل الإنساني، وقعنا في مستنقع التفكير المادي اللاإنساني، وسقطنا في فخ الرأسمالية التي لاترحم، والتي سيطرت بدورها على أغلب المراكز العلمية والتقنية في العالم، وسخّرتها لمصالحها وأهدافها الخاصة، وأنتجت لنا سائر الاتجاهات الامبريالية والصهيونية والفاشية.

وفي الطرف المقابل عندما انفصلت الأديان السماوية عن العقل الإنساني، دخلنا في نفق التطرف الديني المظلم، وتفشت الاتجاهات الرجعية، والحركات الارهابية، التي قضت على التعايش السلمي، والأمن الاجتماعي.

○ السفسطائي الروحي: وماذا عن القلب والروحانية؟

● الفيلسوف: أعلم أنّ هذا هو مايهمك ويشغل بالك...للأسف الشديد، لقد تم استغلال الجانب الروحي والمعنوي للإنسان أيضاً، في محاربة العلم والتفكير، وفي تعطيل العقول، وتخدير الشعوب، والدعوة إلى اعتزال الحياة الاجتماعية، بحيث أصبحت الروحانية بدلاً من أن تكون محركة للقلوب، أفيوناً للشعوب.

هذا بالإضافة إلى تفشي الدجل والخرافة بين صفوف هذه الاتجاهات الروحية، بنحو أدى في كثير من الأحيان إلى انتهاك الكرامة الإنسانية.

○ السفسطائي الروحي: سبحان الله...يعني كل قناة معرفية، أواتجاه فكري يكون بعيدا عن نور العقل، يأتي بنتيجة عكسية، ويلحق أضرارا فادحة بالإنسانية، والمجتمعات البشرية.

● الفيلسوف: بالتأكيد...وخير شاهد ماتراه بنفسك الان، ويراه كل إنسان عاقل من المحنة الإنسانية التي تعيشها الشعوب، على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بسبب تغييب وإقصاء العقل الإنساني، واستبدال منطق العقل بمنطق القوة.

○ العاقل: الان انكشفت الغشاوة عن عيني، واتضحت لي معالم الطريق الذي ينبغي أن نسلكه جميعا، طريق العقل والإنسانية، ولولا هذه الحوار الفكري البنّاء، ماوصلت إلى ماوصلت إليه الان، فلكم مني كل الشكر والتقدير.

● الفيلسوف: الحمد لله على كل حال، ومايسعدني هو أنك قد أدركت أهمية الحوار الفكري الإنساني المتمدن، في تغيير نظرة الإنسان، ورؤيته للحياة، وأنه ليس تضييعا للوقت، بشرط أن يكون بنّاء ومنطقيا، وأنّ الحوار الفكري البنّاء يختلف جوهريا عن المجادلات والمهاترات، والسجالات العقيمة، والتي ينبغي أن ننأى بأنفسنا عنها.

○ العاقل: وأنا أعدكم من جانبي أن أسعى دائما لمثل هكذا حوار مع الاخرين، وأن ألتزم بالتفكير العقلي المستقل، بعد أن أتعلم بنفسي قواعد التفكير المنطقي الصحيح، وأعلّمه لغيري، لنبني جميعا رؤيتنا الواقعية عن الحياة، ونحقق الحضارة الإنسانية الحقيقية.

● الفيلسوف: وأنا من جانبي أتمنى لكم من كل قلبي التوفيق والنجاح في طريقكم الجديد، ونهجكم القويم في خدمة الحق والعدالة والإنسانية.

الفهرس

تمهيد ٥

المشهد الأول: حوار مع السفسطائي المطلق

الفصل الأول ١١
الفصل الثاني ١٧
الفصل الثالث ٢٣
الفصل الرابع ٢٨

المشهد الثاني: الحوار مع السفسطائي المادي

الفصل الأول ٣٥
الفصل الثاني ٤١
الفصل الثالث ٤٥
الفصل الرابع ٥٠
الفصل الخامس ٥٦

المشهد الثالث: حوار مع السفسطائي الديني

الفصل الأول ٦٥
الفصل الثاني ٧٢
الفصل الثالث ٧٧
الفصل الرابع ٨٣
الفصل الخامس ٨٨
الفصل السادس ٩٣

المشهد الرابع: الحوار مع السفسطائي الروحي

الفصل الأول ١٠١
الفصل الثاني ١٠٨
الفصل الثالث ١١٥
الفصل الرابع ١٢٠